نشوة

إيهاب فاروق

قصص: نشوة
المؤلف: إيهاب فاروق

تدقيق لغوي: لخضر بن الزهرة
تنسيق وإخراج داخلي: لخضر بن الزهرة
تصميم الغلاف: إسلام مجاهد
رقم الإيداع: 20706 / 2019
الترقيم الدولي: 978/977-85544-5-8
الطبعة الأولى: 2019
رئيس مجلس الإدارة: أ. د. محمود محمد السعيد
المدير العام: هالة البشبيشي

بريد إلكتروني: info@alhalapublishing.com
تليفون : 01110161117
العنوان: 26 ش 261 المعادي الجديدة
صفحة الفيسبوك: مركز الهالة الثقافي
https://www.facebook.com/alhalapublishing

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للدار، ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب، أو جزء منه، أو نقله بأي شكل من الأشكال، أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات، ولا يجوز تداوله إلكترونيًّا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا، دون إذنٍ خطيٍّ من الدار

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبِّر عن رأي كاتبها، و لا تعبِّر بالضرورة عن رأي دار النشر.

نشوة

(قصص)

إيهاب فاروق

إهداء

عزيزي،

إذا وصلتك هذه الأقاصيص

فاعلم أن أبطالها يحيطون بك،

فترفق بهم!

❁

إيهاب فاروق

نشوة

لا أدري ما الذي أتى بي إلى محطة القطار مبكرًا هذا الصباح، رغم أن الانتظارَ بطبعه يقتلني، لكنه السهاد؛ ذلك اللعين الذي أوشك أن يخنقني، إنما ماذا أفعلُ والانتظار قد صار يتربص بي في كل يوم، وهنا وهناك، أنتظر الليل التماسًا للهدوء، وأنتظر الصباح فرارا من الوحشة، وأنتظر الذهاب إلى عملي لأتقلى على نيران انتظار الساعات حتى موعد الانصراف، انتظارٌ يقبع في داخله انتظار، وجحيم لا يطفئه إلا شراب من حميم، ربما تكون متعتي الوحيدة هذا الصباح في مشاهدة القطارات وهي تمر من أمامي، وتصفر، فتحشو بصفاراتها القاسية أعماق آذاني!

مللٌ ورتابة ووحشة، ووحدة لا تبدو لها نهاية، ليت عقارب الساعة تلك المعلَّقة على أرصفة المحطة تلدغني، لتنتهي معها هذه المأساة للأبد، لم تعد قسوةُ الحياة في سرعة فقدان الأشياء، بل في ديمومة الانتظار دون بلوغها، كل شيء يبدو متشابها وملتبسا، حتى تلك القطارات ذاتها صارت تتشابه؛ طالما لم يأتِ بعد ذلك القطار الذي سيخطفك ويحتويك ويذهب بك إلى بعيد.

تأخر كثيرا عليَّ ذلك القطار بينما أتابع المسافرين وهم يهرعون، أغلبُهم فرحون بالسفر وإن بدوا مرهَقين وأنصاف نائمين، تبدو هذه المسافرة سعيدةً جدا وهي تستقبل قطارها الفاخر، لا تحمل لهذه الدنيا هما؛ مقعدُها الوثير محجوز لها في العربة المكيفة، حتى حقيبتها الخفيفة تلك قد تطوع أحدهم

بحملها، للجمال سطوة فرعون يقبض على مملكته بصولجان من ذهب، وإن شحت يداه عند دفع البقشيش!

وهذه الأخرى تجري وتلهث لتسابق عجلات قطارها المتهالك، صفر لها كثيرا ذلك القطار، ثم زمجر بأدخنة غضبه السوداء وأوشك أن يغادرَ دونها، تخشى أن يضيع أملها في ركوب ذلك القشاش، فتعلقت فيه حتى كاد يسحلها، وأنت يا قطاري... يا سيدي العزيز، أما آن لك أن تأتي حتى ولو لتسحلني؟!

لم يعد الزواج –كما كانوا يقولون قديما– حلمَ كل فتاة، تخلينا عنه نحن الفتيات لأسباب اخترعناها نحن أيضا، خطيئة اللهفة والاشتهاء تغلفها متعة الرفض والإباء، فصرنا نسير بأقنعة ترسم البراءة، لكن تفضح خطايانا العيون، وتبقى لذة السر هي التي تشفي غليل شهوات لا ترتوي، تحولنا إلى صناديق، مجرد صناديق من زجاج فاضح، تعرض من خلفه كل شيء، وكلما غَلت البضاعة عز المشترون.

هل جربت يوما إحساسَ أن تكون بضاعة؟ مجرد بضاعة تأكلها العيون، ويعرضها صاحبها مزدانةً بإضاءات من كل الزوايا، يحرص –قطعا– أن يداري العيوب، لكن تظل الأيادي العاجزة مصفدةً بالحسرات، حتى إذا ما فار التنور وبلغ السيل الزبى، تهشم ذلك الزجاج وفقدنا كل شيء! إننا نكذب قطعا، حتى على أنفسنا، نخدع الجميع بالترفع والعفاف، بينما نداء الطبيعة سوط جلاد يهوي فيلهب ظهرونا، فيرن صداه في الغابة المتوحشة ويغلف الآفاق، ومن يحجب ضوء الشمس لن يمنع وصول اللهيب، فأبواب الجحيم تظل مغلقةً حتى يقترب منها ذلك الذي يظن أنه يقدر على اقتباس بعض الدفء، لكن أبواب الجحيم لا تعرف المواربة، ومن خلفها تدق اللفحات.

هل من لمسة دفء تحنو عليَّ ولو قليلا؟! لمسة واحدة تقتل كل ذلك الملل المحبط، ألست مثل تلك الفتاة التي أراها تقترب مني، تبدو لاهية وهي

تمشي تتراقص، تحتضن السعادة في عينيها وهي تتأبط ذراعا ممتلئا بالعضلات، أي ذراع لا يهم! ترى هل تزوجته؟ أم أنها تنازلت كثيرا؟!

اختارا الجلوس إلى جواري، تتعلق في ذراعه القوية تعلق الغريق في قشة، قد تغرق مع تلك الذراع إلى القاع في استسلام، عيناها الجريئتان لا تخشيان كل تلك العيون المتلصصة من حولهما، لا يعرفان العيب أو المحظور أو حتى الحرام، كم أشتاق إلى ذلك التعلق المستفز للجميع، ولو بتلاصق الأكتاف والأفخاذ، ترى ما الذي يهمس به في أذنها كل هنيهة، لا بد أنه همسٌ لذيذ جدا، ويستهويها، فيجعلها تضحك إلى هذا الحد، أليس لي نصيب بعد حتى في الابتسام؟!

تسللت بأذني قليلا؛ علي أسترق السمع، لكن دون جدوى، أحاول عبثا أن أصطنع لا المبالاة وعدم الاهتمام، أجبر قسماتي لترسم على وجهي علامات التأفف والامتعاض، لكني ظللت سيئةً في الرسم على مر الأعوام، فصرت بعلامات انبهاري الملونة المزركشة الممتزجة بالامتعاض الرمادي القميء كوجه مهرج قديم، اعتاد إضحاك الناس بينما يداري عبثا البكاء!

هل أصبحت من الماضي حقا، وأسابق عمري في تلك الحياة وأنا أمتطي صهوة أفكار صار يسحقُها قطار الزمن فوق قضبانه؟ أم أنني أدمنت أفعالَ السر ونشوتَها، تلك التي لا أجرؤ على إتيانها في العلن؟ يمر بنا العمر ونحن نتشبث بتلك الأفكار، العادات، التقاليد، الأعراف... أموال تُلقَى هنا وهناك، عبثٌ في عبث وقد صنعنا منه دينا وصرنا نؤمن به، بل ونجاهد في سبيله، فكثر الملحدون، ألقوا بكل أقنعة ذلك الإيمان الزائف المتشح بأغطيةٍ سوداء، أغطيةٍ لا تخفي خلفها إلا أفعالنا الآثمة!

أي دين ذلك الذي اخترعناه لنتكبل به، فنطلب ممن يريد الزواج أن يهبط لنا بالجنة ونعيمها على الأرض، ويزينها لنا وكأننا الحور العين، رغم أن الجنة تنتظرنا في السماء، ومن ذا الذي يمتلك أنهار اللبن والعسل فيسيلها

هكذا كي لا يكتوي بنيران الجحيم.

يقولون عن الزواج أنه دخولٌ للدنيا، لقد أتينا إلى هذه الدنيا عرايا، ولم نكن نداري إلا سوءاتنا، فلماذا لا ندخل فيها عرايا؟! لكنا نصر على أن نكتسي من الرأس إلى أخمص القدمين، ثم لا نكترث إذا انكشفت السوءات!

ما زال يهمس في أذنها، تبدو غائبةً معه عن دنيا الناس، صخب المحطة وصفير القطارات لا يمنع تعاقب النظرات وهجومَها عليهما، أكاد أجزم أن كل العيون في المحطة تتجه نحوهما.

يا لسعادتها تلك الفتاة وإن تحدت الجميع واستعدتهم، وتحفزت للنظرات المتلصصة كنمرة تحمي صيدها، صنعت للغابة المتوحشة قانون مشهدها بجرأتها، فأجبرت العيون على الاعتياد، وأصبحت أنا بجلستي بجوارهما الشيءَ الأغرب في المشهد كله.

تأخر قطاري كثيرا هذه المرة، ليته لا يأتي حتى أتابع هذا المشهد حتى نهايته.

التف بذراعه حول كتفها، ثم ازدادت جرأته فجذبها إليه من خصرها، فمالت برأسها عليه لتستقر على كتفه بكامل أحلامها، لم تشعره بأدنى مقاومة، اصطدمت كتفه الأخرى خلسةً بكتفي، أحسست بقشعريرة ارتجف لها كل جسدي.

كم هي حلوة تلك القشعريرة الممتزجة بالرغبة والخوف! هل أشاركها ذلك الشعورَ الغريب في تلك الغابة المتوحشة؟ ربما يرضى هو بتلك المشاركة المقيتة، لكن تلك النمرةَ الشرسة لن ترضى عنها بالتأكيد، ولو زادتها تلك المشاركة لهيبا، نحن النساء قد نقبل بالحرمان في الجحيم فرادى، على أن نتشارك سويا في نعيم الجنة!

انتظرت اعتذاره عن اصطدام كتفه بكتفي، لكنه لم يهتم، ربما لم يشعر بوجودي ذاته، هل سأبقى هكذا بلا أحد يهتم بي، ويخشى حتى من الهواء أن يقترب مني؟

رأيته يفعل ذلك معها، كفف جبينها المتعرق بكفيه وأطاح بالهواء بعيدا عنها، فأبت ذراته إلا أن تعود لتعبث بي أنا، فأشحت بوجهي عنهما لأجد الخواء الذي يسكن بجواري، وما زال المقعد الذي على جانبي الآخر خاليا، هل أنا على موعد مع شيء ما؟!

يبدو أن أحدهم قد تقدم لي، عفوا تقدم نحوي، ما زلت أحلم بالقطار الغائب أن يعود، لم ينتظر طويلا واتخذ قراره وجلس بجواري، مر من أمامي كطيف سريع لم أتبين ملامحه، لكنه يبدو أكثر وسامةً من رفيق غريمتي، لن أركز في النظر أكثر كي لا تفضحني نظراتي، ما زلت كالجائعة تحلم بكسرة خبز مقدد، بينما تتظاهر بالإصرار على التهام عيش السرايا.

ليس في عائلتنا ما يغري بالنسب، ولست جميلةً لحد الإبهار لترتمي تحت أقدامي همم الرجال، لكن يجب أن أرى في نفسي هكذا وإن ظللت عانسا للأبد، فقد صار ذلك عرفا، وكثير من البنات وصلن إلى تلك القناعة، ولو تزوجن شيوخا طاعنين في السن، أو أن يصرن زوجات مع أخريات.

صار الزواج لمن يستطيع دفع فاتورة الحساب، أما النشوة فقد قررن أن يبلغن أقصاها في السر بلا حساب، هل سأظل جائعةً هكذا إلى الأبد؟!

أشتاق إلى كلمة حلوة، إلى لمسة حانية دافئة، ولو في حر هذا الصيف اللافح، أتوق إلى تلك القشعريرة التي ارتجف لها جسدي في ثانية واحدة، ولو دون قصد، أحتاج إلى جرأة هذه النمرة التي تجلس مع صيدها إلى جواري، تُرى؛ كم شعرت بتلك القشعريرة الحلوة وكررتها مرات ومرات؟ تُرى...؟ لكن...!

يبدو أن جاري الجديد قد تحرك، أرسل لي قشعريرةً أخرى، لكن لا... لا يمكن أن أتحول إلى مثل هذه الصورة التي أبغضها، فتاة تبحث عن أي نشوة مع أي رجل دون تمييز، ربما كانت اللمسة مجرد اختبار منه ليستكشف مدى استجابتي، ما زالت ترن في أذني ضحكات تلك الفتاة.

ترى ما الذي يقوله لها رفيقها الآن؟ هل سيهمس هذا الآخر في أذني فأضحك بتلك النشوة؛ مثلَها؟ صار لي وقت طويل لم أضحك فيه، إلا على تلك النكات الخارجة السمجة التي ترويها زميلاتي المتزوجات في العمل، لست أدري ما الذي يدفع أغلبَهن أن يقتلن أوقاتهن بتلك النكات، ويقتلنني كذلك برواية كل خبراتهن في الفراش، ألا توجد لمساتٌ دافئة تقشعر لها أبدانهن بعد الزواج، فصرن جميعا بكل ذلك البرود؟!

دوت صفارة القطار التوربيني السريع، هذا الذي لا يقف أبدا في تلك المحطة، لكنها إشارة لي على كل حال، فقد أوشك قطاري أن يصل، يخزنوه دوما لينتظر من أجل مرور ذلك المارد العاصف، لطالما حلمت بالركوب فيه، لكنه الحلم الذي يزول في لمحة بصر.

من العبث انتظار قطارٍ لا يقف أبدا في محطتك إلا متعطلا، أو مصطدما بقطار آخر، يبدو أنني قد أصبحت مثله تماما، أنطلق بعمري ولا أتوقف في أي محطة، بينما الاشتياق ينتظرني في كل المحطات، حتى تلك اللمسة الدافئة من ذلك الكتف الحاني الذي صار يصطدم بكتفي مرات، ربما لن يقف هو الآخر في محطتي أبدا، أكاد أجزم أنه يقصد تلك الصدمات، القشعريرة تسري في بدني كله ككهرباء لا تنقطع أبدا.

لم أعد أشعر بغريمتي النمرة الشرسة وبما يفعله معها رفيقها، غبت أنا الأخرى مع رفيقي عن دنيا الناس، أكاد أسمع همساته تستقر في أذني في سكون، همهماته؛ تلك اللذيذة تسكرني، وإن لم أتبينها، ليس مهمًّا من الذي يقولها، أو ماذا يقول، إنما الأهم أنني قد صرت أسمعها، في استبيان المجهول

لذة لا تعدلها إلا أن يظل المجهول مجهولا كما هو، فالحقيقة قد تكون فاضحةً، وقد لا أمتلك الجرأة التي تتمتع بها تلك الفتاة لأضحك فقط من دغدغات المشاعر، كل شيء سيأتي في حينه على كل حال.

دوت صفارة قطار آخرَ، أتت مرهَقة مقطوعة الحيل، دخل القطار خلفها يحجل إلى الرصيف بأدخنته السوداء، يبدو أنه قطاري اللعين وقد وصل أخيرا.

لا.. لا يمكن أن تنتهي القصة بسرعة هكذا، ألم يكن من الأوجب أن تتأخر قليلا أيها القشاش السمج؟ ما زال حوار الأكتاف يتمطى وتعيقه حواجز الخجل، يبدو أن جاري لا يتمتع بنفس جرأة الفتى الآخر، عساه ينطق حرفا واحدا مفهوما لأستكمل له ما تبقى من حروف، انطق يا هذا فقد أوشك القطار على مغادرة المحطة، هؤلاء الرجال لا يحسنون تقدير الأمور، هل صار عليَّ أن ألجأ لحيلة من حيل النساء؟!

هممت بالانصراف عساه يتبعني، ربما يركب القطار ورائي، ظللت أقدم رجلا وأؤخر الأخرى، هل سيفهم حيلتي حقا؟ أم سيظل جالسا هكذا بغباء الرجال؟ هي مغامرة على كل حال، النشوة ما زالت تدغدغ كل كياني، أكاد أسمع وقع خطواته وهي تعانق ظلي، استدرت ورائي مرات ومرات، أنظر خلفي بلهفة مشتاقة جائعة للحنو، أدقق النظر علني أجده وهو يتتبع خطواتي...

لكني... لكني... لكني لم أكن أجد أحدا، ولا حتى طيفا لخيالي المتأجج بتلك النشوة الحلوة، ما زال صداها يفت في أضلعي، فيدق لها وجداني ويتراقص على أنغامها قلبي، رقصة السعادة بالوصول تلاحقها رجفة الخوف من الفقدان، فلم أجد بُدًّا من العودة لمقعدي على الرصيف مرةً أخرى.

أخشى من مصير غائب قد تطويه الذكريات ولم أتبين بعد ملامحه، تظاهرت بنسيان شيء ما وعاودت الجلوس، عساه يلامس كتفي مرة أخرى،

لكنه لم يفعل، وكأن الخواء قد عاد يسكن بجانبي، تجرأت قليلا وملت على مقعده، تحسسته بلهفة، ضحكات الفتاة اللعينة كانت تطاردني مع دوي صفارات قطاري الذي يوشك أن يغادر المحطة، كان مقعدي لم يزل ساخنًا كأن لم أتركه، أما مقعده فكان باردا، باردا جدا، وكأن لم يكن يجلس عليه أحد!

صندوق معدني

لم يكن الأمر مجرد اختيار منا، بل ظلَّ هو الإجبارَ بعينه؛ أن نجلس مقرفصين هكذا وفي هذا الصندوق المعدني الذي وضعوه فوق سيارة ربع نقل، وقد أُعِد خصيصا لنقل الركاب، لكن من نوعية القرود التي رفضت التطور واستمرأت القرفصة وهي تقزقز الفول السوداني وتأكل الموز فوق فروع الشجر، ثم تصرخ فرحا وهي تلقي بالقشور فوق رؤوس البلهاء من البشر.

لكن ظلت هذه هي وسيلة المواصلات الوحيدة التي تربطنا بالمدينة عبر ذلك الطريق الضيق الذي يتلوى وسط المزارع كثعبان أصابه تقلص في الأمعاء، فتخترقه السيارات وتتلوى معه بعد أن تهتزَّ هنا وتتمايل هناك، لتصل إلى المدينة متعبةً لاهثة؛ لا يلاحق لهاثها ذاك إلا لهاث ركابها من هبد المطبات، فيخرج الراكب من الصندوق معصورا أو مفعصا، وربما محمولا ومقلوبا من رجليه كما الخارج من بطن أمه، فيصفق مرافقوه المعصورون معه لخروجه سالما بعد عناء، وفرحا كذلك للتخلص منه ومن حشرته، فقد نقص من الصندوق واحد ليسقط ويبرطع على الأرض بعد أن قطعوا له حبل الخلاص!

ومع انقطاع الأمل في زوال زغدات الركاب من حولك عن اليمين وعن الشمال، فقد احتل مكان ذلك الراكب (المزلوط) راكب آخر من أولئك المتعلقين بالحديدة خارج الصندوق، فيدخل ويجلس منشرحا ليبذر بذرته في

باطن الصندوق لتنمو من بعد الشعبطة، ولا يكاد يستقر في مكانه حتى يعودَ ويملص بأردافه المكتنزة ما بين الأفخاذ المتلاصقة، لتنحشر تركوته وتأخذَ مكانها وسط التركوات المتحفزة، فتستريحَ في جلستها وربما تنطلق منها الغازات ابتهاجا بالنصر المؤزر والظفر بالمقعد من بعد التعلق في الهواء.

إلا أن كل هذا لم يكن يعني ذلك الفتى الجالسَ في الركن الأخير، والصامت تماما منذ أن بدأنا في دخول ذلك الصندوق، فلا هو يشرئب بناظريه محاولا رؤية ما تبقى من المروج الخضراء التي التهمتها الكتل الخرسانية المتراصة، ولا يتابع تلك المعركة الضروس الدائرة بين كلاب الغيطان وأصحاب الأراضي، فلم تعد تجد الكلاب غيطانا تختبئ فيها لتنبح في الليل والنهار على كل غريب، لكن عيني الفتى قد تركزتا فقط في شاشة هاتفه النقال الكبيرة، والابتسامة تعلو وجهه ما بين لحظة وأخرى، ثم نراه يلوح بأصبعه دوما نحوها، وبصورة مستفزة!

– عشر قضايا، ولا ندري لماذا!

هكذا صرخت تلك السيدة المتشحة بالسواد، بعد أن ظلت تتمتم كثيرا منذ أن ركبت معنا بعد أول محطة، ولما لم يعرها أحد منا انتباها لم تجد بُدًّا من الصراخ، لم نكن نظنها تريد أكثر من مكان تجلس فيه، ترك لها أحدهم مكانه المحشور فيه حشرا لتنحشر هي فيه، وعاد ليتعلق مرةً أخرى بالحديدة، ولم يجد الجالسون من حولها بُدًّا من مطارحتها السؤال بعد الصراخ...

– عشر قضايا! لماذا؟!

– مخالفات بناء وسرقة ماء وكهرباء، كنا نسكن في عشة سقفها من الصفيح، وتغمرها المياه كل شتاء، كل ما كنت أريده هو سقف حاكم أستتر تحته أنا وأولادي، الكل كان يبني من حولنا ولم يخالفهم أحد، الولد الكبير هو الذي يسعى ليطعمنا، لم يكن من الحكمة أن أتركه هو ليُسجَن وإخوته صغار

يحتاجون من يطعمهم، أزالوا البناءَ بالجرافة أمام عينيَّ، وأجبروني على دفع ثمن الإزالة، ظلت باقي البيوت منتصبةً حولي وجاراتي اللعينات تخرجن لي ألسنتهن في شماتة، مع كلمات مكررةٍ ومصطنَعة من الأسى على سبيل المواساة، صار لهن أسقف ولم يعد لي، أخشى أن تكون غرفة سجني هي الأخرى بلا سقف!

– هوني عليك يا حاجة، فالحكومة تفعل ما تشاء.

– تجي دوما علينا، ثم تحملنا نحن تكاليف الجناية.

– لماذا لم تحرقي العشة يا حاجة، مجرد حريق بسيط ثم تستصدرين بعدها إذنا بالإصلاح وإعادة البناء.

– لكن هذا تلاعب بالقانون؟!

– هكذا الحكومة دوما، تحب من يلتف عليها كثعبان.

نبحت الكلاب نباحات متقطعة، يبدو أن السيارة قد اخترقت منطقة نفوذ لها، ثم أخرج الفتى الصامت لسانه لشاشة الهاتف، مع ابتسامة عريضة!

توقفت السيارة رغم نباح الكلاب، رأينا شبحا يتلكأ في المسير إلينا من بعيد، سجادة متحركة تخفي تحتها امرأة دقيقة القسمات، والسجادة تكاد تدقها دقًّا في أوحال الطريق.

– ساعدوني يا أسيادنا.

تلقف راكبان السجادة من فوق رأسها ووضعوها بين أرجلنا المقرفصة، ثم وضعوا المرأة التي بدت كهرة خارجة من الماء بعد معركة مع كلب ماهر في السباحة والعراك فوق سجادتها، فازددنا انكماشا وألما...

– بكم هذه السجادة يا حاجة؟

– ليست للبيع يا ابني.. هي للغسيل... سجنوه في قضية نفقة وتبديد، أنا التي زوجته البنت، لم أكن أريد شحططتها مع أولئك الصبيان الصغار، فوقعنا في شر أعمالنا، ما إن تزوجَ البنت حتى احترقت طليقته من الغيظ، توعدته وقالت أن السجنَ أولى به من أحضان ابنتي، لم تتستر البنت في بيته إلا قليلا، وضع فيها بذرته ثم عادت إليَّ مرةً أخرى بهمها وببطنها المنتفخة، لأعود مرة أخرى وأحملها هي ورضيعتها وأنا التي لا أجد من يحملني، تجاوزت الستين والصحة تجاوزتني هي الأخرى، أشاروا عليَّ بالزواج من أجل الونس، وجدت غسيل السجاد أهون، خمسون جنيها في الواحدة لا تكفي، لكني قد أظفر بعباءة أو طرحة مستعملة هبةً من صاحبة السجادة، ونأكل كذلك من بيتهم اللحم في العيد!

– كان الزواج لك أفضل يا حاجة.

– يا خويا! أهو كله هبد! هناخد زمنا وزمن غيرنا؟!

عادت الكلاب للنباح مرةً أخرى، لكن باستمرار هذه المرة، فانتبه جميع الركاب في الصندوق إلا ذلك الفتى الصامت، فقد ظل يبتسم ويبتسم موجها نظراته لشاشة هاتفه!

تجاوزت السيارة منتصف الطريق تقريبا، وكادت تتفسخ أرجلنا من جلسة القرفصاء هذه مع تلك المقاعد المنخفضة جدا، فصرنا نتبارى في تقمص دور القادر على التحمل والمستهين بالألم، مع نظرات من السخرية من الآخرين ومن ركبهم هذه الخرعة التي لم تتحمل نصف ساعة من القرفصة والتيبس.

لكن لكل قدرة نهاية، ولكل ركبة احتمال مهما بلغت وتجشمت من النضال، خصوصا مع تتابع نظراتنا على السائق الذي ظل يبرطع على كرسي وحده في كابينة القيادة، بل ويجلس بجواره فتاتين انتقاهما بإتقان ذئبٍ جائع

من الموقف، وينتهز الفرصة كل دقيقة ليقوم بنقل عصا السرعات محتكًّا بفخذ مجاورته، فلا تفتأ هي إلا أن تعاتبه بحكات مقصودة بكتفها، أما رفيقتُها فقد انشغلت بإحصاء ما تبقى معها من جنيهات بعد أن وفرت أجرة هذه التوصيلة مع هذا السائق الأبله السائل لعابه فكاد يغرق الكابينة، فتداهمهم الطرقات المتأججة بالغل على زجاج النافذة من الصندوق الخلفي، فتوقظ كلا منهم من نشوته المختلَسة...

– بسرعة شوية يا أسطى، ورانا مصالح.

– لولا الاحتياج ما ركبت مع هذا السائق أبدا.

قالها المتكوم الآخر في الركن، بعد أن سحب نظراته من خلف زجاج الكابينة...

– لولا سرقة الموتوسيكل لما اضطررت للركوب مع هؤلاء الذين جعلونا ذوي قرون على آخر الزمن، ذهبت لترخيصه منذ أسبوع، قدته لسنوات دون رخصة ولم يسألني عنها أحد، كل الطرق التي أسير فيها لا تعرفها الكمائن، ومع ذلك أردت الاستقامة مع نهايات العمر، دخت السبع دوخات حتى قبلوا مني الفحص والأوراق، وخرجت في قمة سعادتي وأنا أحتضن الرخصة كعروس كنت أنا أول بختها، لكني لم أجد الموتوسيكل في مكانه، سرقوه من أمام بوابة إدارة المرور، قال لي الضابط الذي اشتكيت له: «هل سنرخصه لك ثم نحرسه كذلك؟!» فعدت بالرخصة كمن عقد قرانه على ست الحسن ثم هربت منه العروس ليلة دخلتها، فتمسك هو باستلام قسيمة الزواج من المأذون!

– عملت محضر يا عم الحاج؟

– نعم عملت محضر، والمحضر لا يزال في جيبي، لكن المحاضر لا يركبها الناس مثل الموتوسيكلات يا ابني.

ضج كل الركاب في الصندوق بالضحك رغم تزايد آلام ركبهم المتفسخة في هذا الطريق الطويل، لم يبتسم الفتى الصامت هذه المرة، لكنه ظل يشيح بيديه ويشكل بأصابعه للشاشة التي رأينا عليها صورة شخص آخر، ثم تعالت أصوات نباح الكلاب أكثر وأكثر، فلربما أحست بصوت عجلات السيارة تخترق مخابئهم في الغيطان.

يبدو أن السائق لم يعد يستمرئ طَرق الركاب المحشورين في الصندوق على زجاج الكابينة، ربما قطعنا عليه خلوةً حلوة كان قد أعد لها طويلا فتوقف بالسيارة تماما، وطال انتظارنا في الصندوق، فنزل أحد المتعلقين بالحديدة ليسأله عن سبب وقوفه، فقال له بصوت يشبه فحيح أفعى لم تذق طعم الماء منذ رقدتها في جحرها، ويختلط مع كلمات الأغاني المنحطة التي يستمع لها مع صيديه الثمينين...

– الطريق واقف يا أستاذ! الدنيا كلها واقفة وخربانة، حتى يمر موكب تأييد الرئيس، يريدون انتخابه مرةً أخرى، من يريد النزول هنا هو حر، أما أنا فحتما سأصل إلى موقفي مهما طال انتظاري.

موكب لتأييد الرئيس! يترأسه عضو مجلس النواب الثري القوي، أنفق كثيرا ليجلس على مقعده هذا تحت القبة، ولن يتنازل عنه أبدا مهما كلفه الأمر.

مرت سيارته الفخمة بجوارنا، أفسحوا لها الطريق عنوة، ومن خلفها عشرات السيارات التي تحمل مكبرات الصوت، تصدح كلها بعبارات التأييد والوعود والتوعد، صوتها كان أعلى من صوت نباح الكلاب التي ناضلت لتصل إلى آذاننا باستماتة، فاختفى صوت نباحها وسط الأغنيات ودقات الطبول.

ترك الركاب الصندوق تباعا، فلا أمل في الوصول إلا بعد مرور

الموكب وعبوره الجسر القديم المتهالك إلى الضفة الأخرى من النهر، حيث المدينة والزحام الأكبر، غادرت صاحبة القضايا وحاملة السجادة وتبعهما فاقد الموتوسيكل، ثم الآخرون الذين كانوا يسمعون، ساروا جميعا مطأطئي الرؤوس!

كان حتما علي أن أغادر كذلك، فنظرت إلى السائق من الزجاج فوجدته ما زال يتمايل على نغمات أغنيته المقززة، ويستقر برأسه على كتف رفيقته الساخن، فقلت للراكب الأخير الصامت المبتسم دائما..

– وأنت كمان مش ماشي؟

فأشار إلى فمه ولم يتكلم، ثم تركني أشاهد الموكب وهو يشير إليه بإصبع يده الوسطى بإشارة مبتذَلة، فضحكت كثيرا، فالوحيد الذي كنت أؤمل فيه في هذا الصندوق كان أبكما، فرددت مقطعا من أغنية السائق المقززة التي صمت أذني من كثرة تكرارها:

– الدنيا خربانة!

استدعاء

أصبحت أكرهه، يحيط بي صندوقه من كل اتجاه، يضيق عليَّ رغم اتساعه، ورغم أنني أقف فيه وحدي، لكن أكاد أختنق فيه، وحتى تلك المرايا التي تغلفه في كل الأركان، أظنها قد وُضِعت من أجلي أنا بالقصد، كي تترصدني، وتحسب عليَّ كل ما قد يتجرأ ويفر من أنفاسي، بل وتجبرني أن أرى فيها الحقيقة، حقيقة ذلك الشخص الذي أقابله في كل صباح، ثم أعود وأراه شخصا آخر في المساء، وهو عائد خائف يترصد!

صار من الصعب عليَّ أن أبدأ بذلك المصعد اللعين يومي، ثم أعود وأنتهي به مرةً أخرى، لكن استخدامه صار حتما عليَّ الآن، وكلما قررت الهروب منه لأستمتع مرة أخرى بصعود درجات السلم درجة بعد درجة، يتلقفني ذلك الحارس السمج ويهرع لاهثا نحوي، ويبادر بفتح بابه لي ليجبرني على الدخول فيه، وهو يكيل لي كل آيات التحيات والتعظيمات الممكنة بيديه وبلسانه، وربما بأصبعه كذلك، لكن من وراء ظهري!

رحلة صعودي فيه لا تستغرق وقتا طويلا، أنا أسكن في طابق متوسط، لكن في عمارة متميزة، ويكمن سر تميزها أنه لا يدخلها أو يخرج منها أبدا غريب، احتياطات الأمن على بابها تنقيها كما ينقى الثوب الأبيض من دنس الغرباء، يحيط بي سكانها من أعلى ومن أسفل، رجال أعمال وأطباء ومهندسون ومديرون ومن يحملون أعلى الشهادات ويدرسون في الجامعة، وهناك كذلك

من لا يحملون أدنى شهادة لكنهم يملكون المالَ الذي يشتري كل الشهادات، إنما أظل أنا في النهاية –وأنا فقط– ذلك الشخص الوحيد الذي يعوّلُ عليه الجميع، وهو الأهم، ومصدر الفخر بمجاورته في تلك العمارة، باختصار وبعبارة مقتضبة قد تكون هي فصل الخطاب في كل حوار: أنا الحكومة، ومن ذاك الذي لا يحاول التقرب من الحكومة؟!

ليس مهمًّا ماذا أعمل، وما إذا كان عملي مهما في نظرهم، هم يهتمون فقط بنفوذي، وما الذي سيفعله لهم ذلك النفوذ وتلك النحاسة الصفراء منذ أن صارت تزين باب شقتي، أكاد أشعر بهم يتحسسونها على الباب كلما طلبوني، أعلم أنهم ينعتونني دوما بالغرور، مع أنني لست من أولئك الذين يحاولون التباهي بما هم فيه، فما أنا فيه الآن هو أبهى من أي تباه، ولو كان مصطنعا، ولا يحتاج قطعا للتأكيد عليه، أشعر بالفخر أحيانا بما قد وصلت إليه، لكنني لم أتعالَ يوما على أحد، هم الذين يرفعونني هكذا فوق رؤوسهم، وما ذنبي أنا في ذلك!

يحيطونني بطلباتهم المتكررة كل يوم، من خلف الباب وعبر الهاتف وفي انتظار المصعد وعلى العتبات، كادوا يخنقونني مثل ذلك المصعد الذي ما أفتأ أن أختلي فيه وحدي، يناضل الحارس لتقديمي إليه قبل الجميع، يدفعهم دفعا بغلظة ريفي تشققت راحتاه، فتبدو لي طلباته هو الآخر من بين هذه الشقوق، فأهرب منها ومن إلحاحه إلى داخل ذلك الصندوق، فلا أجد إلا ثلاثة يشبهونني وينظرون إليَّ في المرايا، فأعود إلى الاختناق مرةً أخرى، فلربما ألقوا عليَّ طلباتِهم هم كذلك، فأعطيهم ظهري وأغلق الباب في بلاهة.

تكاثرت عليَّ الطلبات في الآونة الأخيرة، جاري الطبيب يناضل للحصول على إجازة، سيفر بعدها إلى الخليج ويعود محملا بكرشه الذي سيزداد ارتفاعا، ربما يطلق لحيته ويعود يعالج الناس بالحجامة، أما جاري المهندس فيريد الترخيص لمشروع من مشروعاته الكثيرة، قد يعرض عليَّ مشاركته في إحداها، أما المدير فيطمع في رئاسة البنك، تورمت عيناه من

متابعة كشوف مكافآت الرؤساء، وحتى الأستاذ الجامعي يشتاقُ أن يكون عميدا، أبحاثه العلمية لن تصل به إلا للترويج لكريمات تفتيح البشرة في الإعلانات، والناس لا تهتم إلا بتلك الفتيات الفائرات اللاتي ترقصن خلفه بجلودهن العارية البيضاء القادمة رأسا من روسيا، وبدون أي كريمات إلا ربما للتغميق ليبدون من أهل البلد ولو في الإعلان، قال لي أنه لن يظل هكذا قابعا في معامل تسكنها الفئران!

وإذا فررت من كل هؤلاء فلن أفر حتما من ذلك الحارس ومن سماجته، يريد العلاج على نفقة الدولة، ويريد تزويج ابنة أخرى من بناته الخمسة، ويريد وظيفةً لابنه بعد خروجه من التجنيد، كنت سببا في إرساله له بعيدا عن خط النار، فرح الحارس وكاد يرقص لما أرسلوه له ببذلته العسكرية ليبيع في بقالة متجولة، استبدل التين والزيتون بطور سينين، لعله يستمر في التجارة بعد أدائه الخدمة، يريده أبوه أن يصبح موظفا في الحكومة لا منافسا له في تجارته التي بدأها على الرصيف في مدخل العمارة، اشتكاه كثير من سكان العمارة لإزالة بضاعته تلك التي تشغل الطريق، لكني كنت أتوسط له حتى يأكل (عيش) وينقطع عني بطلباته الكثيرة ولو قليلا، لو أنني أصبحت وزيرا يوما ما فربما أسندوا إليَّ حقيبة إدارة شؤون ذلك الحارس وحسب، لو كان الوزراء يبذلون نصف ذلك العناء الذي أتجشمه في إيصال طلبات الناس لهم، لما بقيَ على أرض هذا البلد محتاج!

لا أنكر أنني أسعد كثيرا بقضاء حوائج الناس، علمني أبي ذلك قبل أن يعلمني الصلاة، كثيرا ما كان ينصحني بذلك وهو يصطحبني معه في الطريق إلى المسجد..

– بقدر ما تهتم بالناس بقدر ما يهتمون بك.

بذر بذرة الخير ثم تركها ولم ينتظر الحصاد، مات قبل أن ينتقل من أمانه المطمئن مع الله لأماني أنا المرتبك مع الناس، أظنه يقطف الثمرات الآن في

روضة قبره المتسع الرحب، ولا يشعر مثلي بهذا الاختناق، تركني لأصنعَ من توسلات الناس عقدا وسوارا ذهبيا مرصعا، لكني أتقيد فيهما ويخنقانني، لا يقتنع الناس باحترامهم لك إلا إذا أقمت لهم سدًّا يحجز مصالحهم خلفه، ولا تفيض بالحاجات إلا لمن يستسقيك بالتوسلات، هكذا أنشأتهم الحكومات المتعاقبة، فأدمنوا الحصول على حاجاتهم من أصنام يصنعونها بأنفسهم، ثم يظلون لها عاكفين!

لم تثمر زرعة أبي إلا في أنا وحدي، هكذا يتحدث أخي الطبيب دوما، يظن بأن تفوقه في الدراسة كان بجهده هو فقط، أما دعوات أبي فقد اختصتني أنا وحدي، فأنزلت على مستقبلي الماء فاهتزت آمالي ورَبت رغم قلة جهدي وتحصيلي وتأخري الملحوظ في الدراسة، لكن ظلت توسلات أبي ذلك الشيخ الصالح المحبوب من الجميع هي التي ألقت لي مفتاح السعادة وأسكنتني في مقاعد الحكام، ألقاها خلسة في ساعة ود مع أحد الذين لا يزورون المسجد إلا نادرا، لم يكن الطلب إلا مجرد مزحة عندما التقى الباشا في باحة المسجد فوق الحصير.

لكن من ذاك الذي يرفض للشيخ طلبا وهو الذي يتوضأ بماء الجنة كل صلاة، فتعانقت المسابح وفاء بالوعود، أما أخي فلم ينل من أبيه أبدا إلا الدعاء بأن يفتح الله عليه، وينير له بالعلم طريقه، فظل يناضل ويزدرد السهاد في الليل والنهار، ملأ رأسه حتى اكتظت وفاضت علما ومرارة، فهاجر وألقى كل شيء في أحضان غريبة، يطحن عمره ويعتصر دمه ليصنع منهما خبزا لأطفاله.

ما زلت أتذكر نظرات عينيه لما تبادلنا مقاعد الغيرة، كان على وشك الرحيل، ألقى بألواح الليالي وسهرها مع أنات مرضاه، وسافر ليزيل آلام من سيجزل له العطاء، لم أحمل له ضغينة أبدا، ولا أظنه كذلك، تظل الدماء تحن لقلوبها الطيبة وإن انقطعت الأوردة والشرايين، كنت أغار منه لتفوقه الواضح الذي ظل يلاحقني، رغم أنه يسبقني بعام واحد، يحقد الأخيرُ على الأول

دائما، لكنه مضطر للتصفيق لأخيه على الدوام، لم ينتظر أبي أو أمي مني أن أبلغ ذلك الشأن الذي يبلغه أخي دوما، لكنني كنت أنال الفرحة الأكبر لأنني قد تفاديت السقوط بجهد جهيد، وأنال منه كذلك نظرات تقليل واستهانة ظلت تحرقني، حتى خاف عليَّ أبي فألقى بي في يم الحياة، فالتقطتني الحكومة فصرت من الناجين!

خلف هذا الباب ترقد الطلبات الأهم، طلبات الأسرة اللئيمة، هكذا صرت أسميهم منذ أن امتطيت صهوة جواد المنصب الكبير، الكل يلبي لك ما تريد قبل هذا الباب طمعا في رضاك، إلا هنا، طلباتهم التي لا تنتهي تكون دوما بالإجبار، وإياك إياك أن تنسى. هاك بذلة تدريب جديدة للولد مع حذاء رياضي من ماركة محترمة، لم تر أباك وهو يتجشم اللعب بحذاء (باتا) الصلب، ويحرز الأهداف في الوقت الضائع، وتلك البنت لا يكفيها أن تقتني أحدث هاتف محمول ثم تستبدله بآخر بعد شهرين، لكنها تصل الليل بالنهار تحدثا فيه، تلك هي المذاكرة يا أبي، لم أعرف المذاكرة يوما يا ابنتي حتى أفتيك فيها، أما أمهم فقد اقتنعت بكونها قد صارت (فاترينة) عرض زجاجية لما تقتنيه من ملبوسات ومجوهرات، تشغل يومها كله في تنظيف وتلميع ما يستقر على أرففها من معروضات، ولولا الفضيحةُ لأظهرت ما يلتصق بجلدها من ملابس، لتثبت أنها من أشهر الماركات!

خيم الهدوء عليهم هذا المساء، شيء غريب لم أعتده منهم من قبل، اجتمعنا أخيرا على مائدة طعام، أكلنا وشربنا ثم جلسنا، لم تلاحقني طلباتهم كالعادة، ولم أصم أذني من تقريعهم لعدم تنفيذ أحد الطلبات أثناء جلسة تأنيب طويلة، كلهم ينظرون إليَّ في تساؤل، لكن أحدا لم ينبس ببنت شفة، وكأننا ننتظر حدثا جللا سيحدث بعد قليل، تمتعت طويلا بحاستي السادسة، أعلم أن الأقدار تخبئ بحنكة مكنونَها المبهمَ، لكنها تنبئ بالشواهد رحمةً من الله من انكسار القلوب، فقد لا تحتمل الكسر، هل صرنا على الحافة؟ أم ما زلنا نتسلق الجبل؟ أم أن الهوةَ السحيقة تنتظر ارتطامنا بالقاع؟!

دق جرس الهاتف، يبدو أن هذه هي العلامة، الكل ينتبه إلى تلك الدقات، لكن لا أحد يتطوع بالرد، شبح الخوف يتمطى ويردف أعجازا وينوء بكلل، لو كان امرؤ القيس بيننا لطرح الخمر جانبا، واهتم بذلك الأمر، كل منا لديه هاتفه المحمول الخاص، نسينا تقريبا دقات الهاتف الثابت القديمة، لماذا يدق الآن ويقسو بدقاته فوق رؤوسنا جميعا، تلك الدقات مؤلمةٌ حقا، لم يكن لغيري في هذا البيت أن يحتمل كل تلك الآلام، فتقدمتُ ورفعت السماعة، لم أجد مجالا للرد على الكلمات المتدفقة نحوي، تندفع سريعةً وصريحة وواضحة لا تحتمل اللبس، وتسدد طلقاتها باستبداد صوب رأسي...

– يمكنك أن تحضر غدا صباحا.

هو اختيار نعم، لكن مع مثلي أنا لا يجتمع الاختيار مع الرفض.

هبوطي بالمصعد كان أسرع في هذا الصباح، لا أخشى المفاجآت إلا إذا اقترنت بالنذالة، تتابعني عينا الحارس في استنكار، اتصالاتي من أجله تأخرت مثل سيارة إسعاف حكومية، تتعثر حتما في الزحام، ينعتني دوما بأن الله قد سخرني للفقراء من أمثاله، لو كان الله راضيا عنك إلى حد تسخير المخلوقات لك كسليمان عليه السلام، فلماذا لا تدعوه تحت سماء الرضا، أم أن سحابة السخط النافر من عينيك قد زمجرت عليك في صباح خريف متقلب، لن ألتفت خلفي كي لا أرى ذلك السكينَ الذي يتمنى أن يرشقه في ظهري، لو عدت سالما سأطفئ نيران حقده بماء الرضا.

لا أظن أنني سأصل لمكان الاستدعاء في الوقت المناسب، تمنيت ألا أصل هناك أبدا، لكنه الإجبار والخوف من سوء العواقب.

– لقد حان الآن دورك، أنت رجلنا.

هكذا تُسْتَلُّ السيوف لقهر الرجال، لطالما ردد أبي دعاء المعافاة من قهر الرجال في صلاة الفجر، ثم طلبَ من الله أن يقعد دعاؤه لأولاده، ربما لم يجد

الدعاء كرسيًّا عندي ليقعد لي على ما يبدو، أدخلني أبي جنة الدنيا بتوسلاته، وتوشك الجنة أن تنطفئ أنوارها إذا لم أدفع فاتورة الكهرباء، هكذا هو العمل الذي يدخل جنان الحكومة، يكون أبدا فيها لا قبل أن تدخلها، فالبقاء في ظلها الظليل هو الجزاء، والخروج منها هو العقاب!

– لن تفعل شيئا أكثر من الشهادة في قضية، هؤلاء الأوغاد قد جن جنونهم، يختصمون الحكومة في المحاكم، دانت كثير من الدول من حولنا بمثل تلك الأفعال الصبيانية، لا تخطئ الحكومات أبدا، يكفي أنها تحسن اختيار رجالها، وأنت من الذين قد أحسنا فيهم الاختيار، لكن من نختاره لن يختار أبدا بعد ذلك، ثقة الحكومة فيك تشفعها ثقتك العمياء فيها.

– لكن أنا...

– ماذا؟!

– لا شيء على الإطلاق!

– تكون غدا صباحا في قاعة المحكمة، وتنتظرك مكافأة كبرى!

لا أحد أتعس حظًّا من ذلك الساكن في رياض الجنة، ويلتمس فيها مطارق للسمع، ليتنصت على أنين أهل النار، ثم يصبحَ هذا هو شرطَ بقائه فيها، بل والصعودَ فيها إلى أعلى عليين، ظلَّ أبي يتوضأ بماء الجنة، لكنه لم يورثني إلا ماءَ النار أغتسل به، وما عليَّ الآن إلا الاختيار بين الماءين!

كل شيء واضح والطريق مستقيم، لكن باب الحق هو باب الخروج، حتى وإن حلفت اليمين، فيمين الولاء يجب كل الأيمان، وهؤلاء الذين ينتظرونك خلف كل باب سيفرحون، إما منك وإما لك وإما فيك، سامحك الله يا أبي، زرعتني في حقل الخوف والرجاء معًا، فصرت بينهما ممزقَ السيقان، وتركتني أرعى قطيعين من الخراف والذئاب، ولو غفلت عينيَّ لحظةً لما بقيت في الأرض

إلا الذئاب، ليتك دعوت لي مثل أخي، أيها التاريخ هلا عدت كثيرا إلى الوراء، لنبدل مقاعد الغيرة مرةً أخرى.

الزحام يعطل الطريق، صرنا كثيرين جدا، لم أعد أتبين وجوه الناس فكلها تتشابه، الجبهات معروقة واختلطت بالتراب ثم أحرقتها الشمس، صارت أشبه بأواني الفخار تبحث عن لا شيء حتى تظل ممتلئةً دوما، شيء ما قد سُرِقَ منهم اليوم في قاعة المحكمة، إنهم حتما لا يعلمون، وإن علموا فأغلبهم لا يهتم، قد لا تشغلهم إلا لمعة سيارتي الجديدة تحت الشمس، ومكيفها هذا البارد الذي حبسني خلف الزجاج، الحمد لله أنهم سيظلون هكذا، فالمعرفة مع مثل هؤلاء فيها خطر كبير، فمقاعد حقدهم أخف وطأةً من مقاعد معرفتهم!

صدح الهاتف الثابت بالسعادة مرةً أخرى، لم تنتظر العائلة اللئيمة عودتي للبيت لأرد عليه، لا يمكن أن تفوتهم هذه البشرى ولو لم يظهر رقم الطالب، فبشروني على الهاتف الجوال، أكاد أراهم الآن وهم يرقصون على نغمات النصر المؤزر، فالمنصب هذه المرة يسيل له اللعاب، وسترتدي الجنة التي دفعت فاتورة كهربائها الباهظة اليوم لهم أبهى الحلل، وربما ازدادت الفترينات أكثر!

ها هو الحارس يستقبلني كالعادة، يبدو بشوشا جدا هذه المرة، يكاد يرقص هو الآخر مع باقي السكان، وضعوا له حراسةً رسمية بجوار السلم في مدخل العمارة، ينصبون أمامها صندوقا آخر يزينه النسر والعلم، سال لعابه، فبضاعته الملقاة على الرصيف سيزداد زبائنها من عساكر الحراسة، ربما وضع نصبة للشاي ليبيعهم إياه مع السجائر والمأكولات، ما إن اقتربت منه حتى رفع يده إليَّ معظما وهو يقول...

– ألف مبروك يا باشا.

لكنه ما إن شرع في فتح باب المصعد لي؛ وتقدم نحوي ليدفع المتجمعين

حولي حتى دفعه الحراس بغلظة شديدة لم يهتم بها، فقد انتبه أكثرَ لكارثة أخرى كانت تحدث له، وعاد سريعا نحو بضاعته التي شرع العساكر في إزالتها بالقوة من مدخل العمارة.

نظر إليَّ نظرة توسل وهو يحاول أن يلملم بضاعته المتناثرة من بعيد، لست أدري ما الذي جعلني أتجاهل نظراته وتوسلاته هذه المرة، فوَضع بضاعة ملقاة هكذا وبلا ترخيص في مدخل عمارة الحكومة، لا يليق!

عيناها عسليتان

بيني وبينها علاقة عشق قديم، لا أذكر أين منا ابتدأ ذلك العشق أولا، ولا من الذي يعشق الآخر أكثر، كل ما أعلمه أنها لم تخلفني موعد مقدمها أبدا، رغم أننا لم نتواعد يوما، فاعتدت رؤيتها في كل صباح، تأتي وتنفض عن جناحيها قطرات الندى، ثم تنقر فوق زجاج نافذتي في تناغم، فتتراقص مع دقاتها بقايا أحلامي التي بدأت في الرحيل، وتداعب بسيمفونية متقنة الإيقاع جفني النائمين في هناء، ليقوما ويستقبلا ضوء ذلك الصباح الفيروزي الرائق، فأهرع لأتابعها من خلف الزجاج.

أكاد أضبط على مقدم تلك الحمامة البيضاء ساعتي العتيقة، لم أتحول بعد مثل الآخرين وأتخلى عن ارتداء الساعات، توقظني دقات هاتفي المحمول كل يوم في السادسة صباحا، ثم تنتهي مهمته في معرفة الوقت عند تلك الساعة، أتناول من بعده ساعتي التي فارقت معصمي منذ الليلة الماضية، أسمع مع دقات بندولها القديم هديل زائرتي المتهدج، فأحرص ألا أقلقها، فلا أفتح النافذة إلا بعد أن تنتهي تماما من تناول كل حبات الأرز التي تركتها لها على جدار الشرفة في المساء، ثم أتابع نظرات الامتنان في عينيها العسليتين.

لم يحن الوقت بعد للذهاب للعمل، لم أعتد الخروج في الصباح بمعدة ممتلئة، لم تعد المواصلات مريحةً كما كانت في الماضي، تكفيني معاناتي من زغدات كيعان الجالسين بجواري حتى أعاني معها كذلك من التقلصات في

الأمعاء، لكن لا بأس من تناول كوب من الشاي الساخن كي أملأ فراغ معدتي القلقة، وأخفف به بعضا من برودة الجو.

تركت الماء يغلي على النار منذ دقائق، وانشغلت بالتقليب في محطات التليفزيون، أعلم أنها عادة قبيحة اكتسبتها مع الزمن، لم تعد الأخبار تأتينا مع نداءات بائعي الصحف في الشوارع، كنت قديما أستمع إلى الراديو بصفاء صباحاته المبهجة، آيات وأدعية وتواشيح، ثم نكات تتبعها أغان لطيفة.

«أجمل صباح عندي صباحك الوردي صباحك البسام!»

ما أجمل أن تستمع إلى هذه الكلمات مع تباشير الصباح، لكن كل هذا قد ولى وأضحى في خبر كان، حتى الراديو نفسه قد صار غير منضبط وتداخلت محطاته واصطدمت ببعضها البعض، لا تكاد تسمع فيه الآن إلا شوشرة وصخبا معباً بالإعلانات، صارت محطاته دنيا هي الأخرى وتمتلئ بالفوضى وتشتعل بالحروب في كل مكان.

لم تعد تبقى لنا إلا تتابعات شريط الأخبار، ذلك اللعين الذي لا يستقر أبدا على حال، أسعار العملات وتحركات مؤشرات البورصات، وصور تتوالى على الشاشة لا تستأنس إلا بأصوات الانفجارات، نيران الحروب تتمدد بين من يشعلها ومن يحرص على استمرارها، وبينهما يسقط الضحايا محترقين في بلاهة شديدة...

لم نعد نجزعُ من تزايد أعداد القتلى، فقد صار الأهم هو ألا نتعرف على أي من تلك الوجوهِ المقتولة، فنطمئن ولو قليلا ونشعر ببعض الأمان، ثم نمصمص شفاهنا في أسى مصطنَع وبلاهة أخرى، يتباهى البناؤون بما بنوا وعمروا ويتباهى العسكريون بما قتلوا ودمروا، ثم يأتي السياسيون ليتباهوا بفعل هؤلاء وهؤلاء، ثم يمنوا على الناجين بأنهم لم يقتَلوا!

أوشك الماء المغلي أن يتبخر كله من الإناء، زدته قليلا فقد تركته يغلي

لفترة طويلة، لم أنتبه إلى بخاره المتطاير في خضم تتابعات الأخبار، ربما غطى على بخاره الأبيض ذلك الدخان الأسود المتصاعد من إحدى التفجيرات، لا بد أنه قد قُتِلَ في هذا التفجير كثيرون، سيارات الإسعاف نفسُها قد اشتعلت فيها النيران، أكاد أسمع رجات ذلك الانفجار بعنفها وعنفوانها، وتهتز لها أذني، صوت طلقات الرصاص كأنه يدق خلف زجاج نافذتي، لا خلف الشاشة، اعتدنا على تلك الأصوات مؤخرا، كل الأحداث قد صارت مباشرةً ومنقولةً حية عبر الشاشات، هناك من يتطوعون بنقل الحرب إلى بيوتنا، لكن هل صاروا ينقلون الحروب صورةً وصوتا مجسما أيضا؟! أننتظر حروبا ثلاثيةَ الأبعاد عما قريب؟!

«احمدوا الله أنكم لستم هناك!»

يَمنون علينا بنعمة الأمان، بعد أن رأينا الدمار يحيط بكل شيء، ثم يظهر القائد الفذ لينعق وهو يعزف على قيثارة نيرون بعد أن أحرق روما، ولا ينسى أن يوزع ضحكاته المتوحشة في كل مكان.

«لقد انتصرنا ونحن الآن على الأرض أقوى.»

للدمار وجهات نظر مختلفة دوما، يراها من يتسبب فيه، ويسوقها من يتاجرون به، لكن أي أرض هذه؟! وما الذي سيتبقى منها؟! بالتأكيد ستبقى عليها الدماءُ التي لن تشربَها، والأشلاءُ الممزقة التي لم تتسع الحفر لمواراتها هنا وهناك.

لم أعد أحتمل رؤية ذلك المنظر أكثر من ذلك، عدت للتقليب ثانية في باقي القنوات، الأصوات هي نفس الأصوات والصرخات هي نفس الصرخات، أما الصورة فلم تكن أفضل حالا، وباء الكوليرا عاد ينتشر في بلد مزقته الحرب بلا رابط، ومجاعات تأكل فيما تبقى فيه من لحوم وجلود ثم تنق في العظام، وما زالت ألسنة الساسة والمحللين والنشطاء تتصارع على

الشاشات.

– أنتم من فعلتم أولا!

– أنتم من بدأتم الانفعال!

– كنا قبلكم نحيا في أمان!

– أخذتم كثيرا، اتركوا الباقي لنا!

لن تبقى لهم إلا كعكة محترقة حتى يقتسموها، أما الغائب فهو خائن حتما.

لكن ماذا بعد؟ نحمد الله مرةً أخرى على أننا لسنا هناك، وما زال هنا شاي ساخن سأشربُه الآن على كل حال، أصبحت أمن على نفسي مثلهم بنعمة الأمنِ والطعام، زدت الماء في الإناء مرة أخرى، فقد تبخر كله وكاد يحترق من كثرة التسخين، لا بد أن أرتدي ملابسي كذلك فالوقت قد أزف، وعليَّ الذهاب حالا إلى عملي.

صببت الشاي في كوب صغير، لم يعد هناك وقت للتلذذ بسخونته في كوب أكبرَ، ما زال هناك سكرٌ في البيت أيضا، أدمنت المَنَّ على نفسي كما يبدو، كما أدمنت سماعَ هديل الحمامة ورؤية عينيها العسليتين في كل صباح.

لكن أين هي؟! لقد تأخرت كثيرا وصار عليَّ الانصراف، لم أسمع نقرات منقارها حتى الآن، أتشاءم كثيرا لانقطاع العادات، خصوصا ما هو مبهج منها، ربما أتت كعادتها ولم ألحظها، يكون صوت هديلها مكتومًا أحيانا، فلا أسمعه، صوت الطلقات قد علا هذا الصباح وغطى على كل شيء، اندفعت نحو الشباك لأستطلع الأمر، لم أرها خلف زجاج النافذة كما هو المعتاد، ربما توارت خلف أصص الزهور التماسا للدفء في الشرفة، لكن هل تترك الطعام

أيضا؟! ظلت حبات الأرز كما هي على الجدار!

يبدو أن صباحي اليوم قد فسد كله، انفجارات وصرخات وطلقات ودخان، وهديل مفقود لزائرتي العزيزة ذات العينين العسليتين، ولا بد من الانصراف حالا، حتى كوب الشاي لم أرتشف منه غير رشفة واحدة، فحزمت أشيائي وخرجت إلى الطريق، صوت التفجيرات والطلقات يتزايد.

هل كل الناس تتابع قنوات الأخبار مثلي في ذلك الصباح المزعج؟ ألم يحن الوقت بعد لإسكات تلك الأصوات المتوحشة؟ وما تلك الأدخنة المتصاعدة من هناك؟! إنها ليست أدخنة المصانع البعيدة، ولا دخان شكمان سيارة لم ينضبط محركها، لكنها... إنها...

إنها دبابة تقترب من بعيد!

هل تحول الكابوس الذي كنت أشاهده على الشاشة إلى واقع من حولي، إلى أتون يشتعل وقد ألقيت فيه؟ أهي الحرب حقًّا؟!

اندفعت لأختبئ من الطلقات خلف أي ساتر، لمحتها هناك، كانت مختبئةً هي الأخرى ومحبوسةً وسط الركام، تحاول الطيران عبثا بجناحين مرهقين، وتناضل وسط الأدخنة الكثيفة، عيناها العسليتان صارتا بلون الرماد، لم يقدر جناحها الضعيف على حملها فسقطت مجهَدةً فوق التراب، جريت نحوها حتى ألتقطها وأنقذها، لكن شيئا ما قد كبل خطواتي، كانت الدبابة تتقدم وتصوب الطلقات يمينا ويسارا، حاولت هي أن تسير على رجليها نحوي، يبدو أنها قد فقدت تماما نعمة التحليق والطيران.

تطايرت بندقية بجواري، ربما يئست منها ذراع فقدت الحياة مع صاحبها، بعد أن ظلت تتشبث بالبندقية باستماتة، التقطتها وصوبتها إلى أي شيء، لم أعتد التصويب إلا لعبا في السابق، أطلقت النار في كل اتجاه، لم تشعر الدبابة حتى بوجودي، مرت أمامي بجنازيرها القاسية تدهس كل شيء حتى ابتلعتها

الأدخنة والنيران، ظهرت هي مرةً أخرى من بعيد، بياض ريشها الناصع صار بلون الدم، سحقتها الجنازير بمنتهى القسوة، عيناها العسليتان انطفأتا إلى الأبد، فأدركت أخيرا أننا قد صرنا بالفعل هناك!

ساعة حساب

دُعِيَ الاثنان أخيرا للحساب، لم يختلفا على شيء أبدا، كما اختلفا في تلك الساعة، تدخل الوسطاء للتقريب، لم تفلح أي من تلك المساعي، ساعة الحساب عاصفةٌ وتبحر بطرفيها في بحر مظلم، وهائج يمتلئ بدوامات الأطماع، دواماتٌ يظل يتمناها كل طرف أن تبتلع الطرفَ الآخر، كل يريد أن يستأثر لنفسه بكل شيء، ويقتطع حتى ما قد يجود به على الآخرين، في كل منا طماع يسكن في البدن، ويسبر أغواره بسكين، وإما أن يقطعه تقطيع سفاح لا يرحم، أو أن يخرج منه ليقطع في الآخرين، فميزان العدل بالقسطاس لا يرضي إلا المتعففين، أما هؤلاء الذين يؤثرون على أنفسهم فربما لم يعد يبقى منهم في هذه الدنيا أثر.

ورغم أن الجميع قد حرص على الحضور والمشاركة في جلسة الحساب هذه لفض الخلاف بين الاثنين، إلا أن أحد الطرفين لم يحضر، وكان الجميع موافقا على ذلك!

قولوا له: «لنا ساعة حساب أخرى!»

بتلك الكلمات المقتضبة ختم الأستاذ (خالد) حديثَه قبل أن يغلق الخط، ويغلق معه كل سبيل للعودة، يريد تأصيلَ شعوره بالمظلومية، كان يتحدث من منفاه، أو من دار هجرته كما يسميها دائما، هرب إلى هناك قبل أربع

سنوات، يتفادى أمرا بضبطه وإحضاره في قضية ملفَّقة، هكذا يقول عنها، حتى حُكِم عليه غيابيا بعدد وافر من السنين، لكنه أبدا لم يكن غائبا يوما عن الوطن، فهو حاضر دوما، وخصوصا عند الحساب، ولو بالغياب!

اعتاد الأستاذ (محمود) أن يجلس في ركنه هذا في المقهى مع كوب شايه الذي لا يطلبه إلا بالنعناع، مع حجر (الشيشة) القص، لم يكن يشاركه في هذا الركن إلا الأستاذ (خالد) الذي لا يطلب إلا سحلبا، بينما يمتص محمود في شيشته ويظل يكركر ويخطط دوما للدنيا، كان يحسب لكل خطوة قد يخطوها قبل أن يبلغها بعشر خطوات، بينما ينفث الدخان من بين أطلال أسنانه التي تبقت في فكيه، فيتأذى منه خالد الذي يكره رائحةَ الدخان كراهة التحريم، ويسعل من نفثات فم محمود سعلات متتابعة، ثم يبلع ريقه بملعقة من السحلب الساخن.

– البلد باظت يا خالد!

– لسة فاكر؟! ما طول عمرها بايظة.

– تخيل؟! متر الأرض المزروعة وصل خمسة آلاف جنيه، والناس تشتري وتبني عادي!

– وتدخل بعدها في قضايا، ويمكن إزالة المبنى.

– القرشين بتوع الغربة هيضيعوا! طب والعيال؟!

– مفيش أحسن من التجارة، فيها تسعة أعشار الرزق، وفلوسك مضمونة وتزيد، ولسوف يعطيك ربك فترضى.

اعتاد خالد أن يختتم حديثه دوما بآيات من القرآن، لم ينس أنه كان معلما للغة العربية، قبل أن ينصرف مسرعا بعد أن ينتهي من كوب سحلبه

الذي كاد يلحسه لحسًا، فهناك مصلحة لا بد وأن يحضرها، ليترك محمود بين أحضان شيشته ويلثم في مبسمها بمنتهى التلذذ، بينما يفكر كثيرا في كلام خالد وهو يتحسر على الماضي، ويخاف أكثر من المستقبل.

ظل محمود يحسب للدنيا حسابها كمعلم للحساب، حساباته جعلته يحزم قديما متاعه ويسافر للخارج، احتمل شقاء العيش ليجمع المال بشق نفسه، ليالي الاغتراب طويلة وثقيلة، اختبأ فيها من العقارب وكاد يعانق الثعابين، في الصحراء كل شيء يأكلك حتى حرارة الجو، لا تدري أنك تبني فيها بيتك من رمال، سيسكن النمل فيه حتمًا بدلا منك، ثم تعود كما يعود الآخرون لا تحمل في يديك إلا النقود، وفي فمك بعض من أسنانك، سيفرح الأولاد بالنقود وتبكي أنت على ما ضاع من أسنان، قد لا تجد ما تقضم به عقلة قصب كنت تمزقها وتهنأ بامتصاصها تحت شجرة ظليلة، ولا تراك إلا السماء وأنت خالي البال.

لم يرض خالد أبدًا بالجلوس في مقاعد المتفرجين، ولم يقنعْ كذلك بمقاعد البدلاء، لم يرَ نفسه دوما إلا كلاعب أساسي في مضمار الحياة، يعدو فيصفق له الجميع، ويحرص أن يكون أول الرابحين.

ولم لا؟ في الوظيفة قد أموت وأنفي ممتلئٌ برائحة الطباشير، هل ستظل عائلتنا التعسة هذه تخسر دوما؟ مات أبي كمدا ولم يبكه أحد، ألقوه لنا جسدا ميتا ثم وقعنا بالاستلام، ليس لنا حتى حق في السؤال حتى عما جرى له في السجن، تركني في هذه الدنيا وحدي أصارع الحياة، ورثت كلَّ أفكارِه وقناعاته، لكني لن أحتمل خيباته، نسجت بخيوط أفكاره وشعاراته سربالا أتوسد به، لا بأس من التعاطي مع الحياة بقوانينها، صلاحك وتقواك قد يدخلانك الجنة، لكنهما كذلك يلبسانك تاج الشرف والأمانة في الدنيا، سمعة طيبة قد تحتاجها حتما، في التجارة كل شيء مباح إلا أن تخسر.

تغيرت الأحوال كثيرا في البلد، كل شيء صار على الهوى، فهوى

الجميع إلى بئر آسن، لم يقنع أحدٌ بما أصابه من طين، فصار يرمي به على الآخرين، وحتى لو كنت من أولئك الذين يشاهدون من فوق البئر سينالك من لطخات الطين ما يكفيك، في أيام قلائل سقط نظام كنا نظنه لن يسقط، وعاد الإخوان ليمتطوا صهوة جواد جامح، ثم سقط الإخوان وعاد النظام مرةً أخرى، لن تأكل من لحم ثور لم ينبك قبضة من طحينه، ليس لك إلا أن تشاهد هلاك الثور في الطاحونة، الأفضل أن تلتزم دارك وتغلق عليك بابك، حتى تمر الغمامة وتشرق الشمس من جديد.

– اسمع نصيحتي يا خالد، الطوفان قادم وسيجرف في طريقه الجميع.

– عندك كل الحق يا محمود، لكن هل أهرب وأترك خلفي كل كدي وتجارتي سيضيعها الولد الأرعن؟!

– لا تخش شيئا، لديه أب ثان سيهتم به، ولديه أخ كذلك لم ينجبه أبوه.

حسبها محمود جيدا، أموالُ الغربة كماء أجاج لا يروي غلة العطشى في الوطن، كان يجبُ استثمارها كي لا تأكلها حاجات الأولاد، لا يعلمون كم شقيت في الحصول عليها، ولا يبالون بإنفاقها في لا شيء، قطار الحياة يحرقُ كلَّ وقوده للوصول إلى المحطة الأخيرة، لندرك في النهاية أنها النهاية بالفعل، وأن هذا القطار لا يعود أبدا إلى الوراء، أما خالد فلم يحسبْها، بل خطط لها وأسرها ثم ألقاها لمحمود، حتى يقتنع بأنه بارع في الحساب!

– لكن كيف خرج من البلد يا أستاذ محمود؟

– حملته الأمواج أو العواصف، هل تظنون أنه سيبقى هنا حتى يقضي ما تبقى له من عمر في السجن؟ أو يخرج منه ميتا مثل أبيه؟

– لكن، هؤلاء الإخوان هم سبب كل المصائب في البلد!

– والله إنا لم نرهم قد فعلوا شرا حتى نتهمهم به، كل ما نسمعه كلام.

ظل محمود يحترق غضبًا مع كل من يتساءل معه عن غياب خالد، ويرجع السببَ في هؤلاء الذين ظلموه وآذوه، فهجر وطنَه وأهله وأحبابه، بل ويتجاسر أن يعلنَ ذلك في كل مجتمع، حتى ظنَّه الناس إخوانيا متعصبا مثله، ونصحه آخرون بالكف عن ذلك، حتى صار يجلس في المقهى وحيدا.

نشأت التجارة ورواها الأولاد بعرقهم فاهتزت وربت، (علي) ابن خالد و(أحمد) ابن محمود، يبدو الاتفاق على خير ما يُرَام بين الكبار، لكن الصغار على غير وفاق دائم، يعاني أحمد من تردد علي، لا يمتلك علي القدرة على اتخاذ قرار، يتفق معه في المساء على شيء، ثم يعود ويغير رأيه في الصباح، يكلمه أبوه في اليوم مرتين أو ثلاثا، يتدخل خالد في كل صغيرة قبل الكبيرة، يشعر بأن أباه محمود بلا رأي في أي شيء في ذلك المشروع، ينتظر الأرباحَ كل شهر فحسب، ويجلس ليعدُّها كل مساء وهو قرير العين هانئ البال، يكفي أن أموالَه تربح وابنه قد استقرَّ الآن في وظيفة، وإن لم يكن يشعر فيها بأنه صاحب المال!

– أريد فض الشركة يا محمود.

– لماذا يا خالد؟!

– لدي مصلحة هنا في هذا البلد، وأريد رأس مال.

– أنت تريد أن تبيعَ نصيبَك إذا؟

– نعم.

يبدو أن الأمور قد اعتدلت معه كثيرا هناك، هؤلاء الإخوان لا يُغلَبون أبدا، في كل أرض لهم مصباحٌ، وعفريت يخرج لهم منه، يطلبون منه فينفذ لهم

كل ما يريدون، مسالكُهم كثيرةٌ وربنا يسهل لعبيده!

لكن الابنين لم يقتنعا بفض الشركة، من يبيع لمن ومن يشتري ممن، وأين نحن من كل هذا، أليس لنا رأي فيما نعرق ونكد فيه، هؤلاء الكبار يتدخلون في حياتنا كثيرا، وقد يفسدوها بتصرفاتهم تلك، لا بد من وقفة حازمة فالمشروع يجب أن يظل قائما، هكذا قال أحمد لعلي الذي وافقه أولا، لكنه عاد وبعد يوم واحد فقط وأبلغه بوجوب فضِّ الشركة، فبدأ الخلاف يزداد بين الشريكين الصغيرين، وبين الأبوين كذلك، فقد اكتشف محمود أنه سيدفع كثيرا لخالد إن هو اشترى منه، وأن حصَّته في رأس المال قد تقل كثيرا إن هو خرج من الشركة، خالد هذا لا يغلبُه أحد أبدا، كيف حسبها هكذا ليكون رابحا في الحالتين!

لم يتخيل أحد في المقهى أن محمود بعد صداقته وشراكته ودفاعه المستميت عن خالد، سوف يتحول هكذا وبمثل هذه السرعة إلى النزاع معه، كل منهما يتمسك بالخروج من الشركة، مع حقه كاملا في رأس المال والأرباح، لا أحد يريدُ تحمُّلَ أي خسائر، أما الأولاد فيختلفون سويا لكن لا يعلمون سبب ذلك الخلاف، وانعقدت الجلسة للحساب، فحكموا لمن طلب الخروج أولا بأن يتحمل الخسائر، فوافق محمود فرحا وإن اضطر أن يبيع نصف البضاعة ليسدد نصيب خالد الذي وافق كذلك على مضض وهو يردد.

– وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم.

ثم تمتم بغير كلام الله على غير عادته.

– حتمًا ستحين ساعة الحساب.

عاد محمود يجلس في ركنه الأثير في المقهى، ويحيطه الرواد من كل اتجاه، وكلما سأله أحد عن خالد كان يقول وهو ينفث دخان شيشته من بين أسنانه المتساقطة:

– هؤلاء الإخوان قد خربوا البلد.

فترامت إلى مسامعه كلمات أحمد وعلي، اللذين عادا إلى الصداقةِ بعد فض الشركة، وظلا يرددان:

– هؤلاء الكبار قد خربوا بيتنا.

بلغني أيها الديك السعيد

أصبحت مكوما في البيت كما القنفذ، أحطتُ نفسي بالأشواك وأصبحت أقول لا مساس، صوت تقريعها اليومي المتكرر قبل أن تنصرفَ إلى عملها استعذب صباحاتي، سقاها بأجاج امرأة لا تشبع من الإبحار فيها كل ليلة، تبدأ السفن قوية ثم يدركها الحطام، لا يستوحش البحر أبدا هلاك السفائن فيه، إنما يبحث عن سفن أخرى جديدة وقوية، لتمخر فوق أمواجه الهادرة صعودا وهبوطا حتى تهلك، أو أن تصطدم بصخوره المدببة القاسية وتغرق، ويبقى البحر دوما بريء الذمة مرتاح الضمير!

– صحيت؟

– لأ.

– أحضَّرْ لك فطار؟

– لأ.

– أضبطْ لك المنبه تاني؟

– لأ.

ثلاث لاءات صرت أبدأ بها صباحاتي التعسة، وتتكرر الأسئلة في كل يوم، والردود هي نفس الردود، وبلا ملل، أبدو كما النائم المستمتع بالكسل وهو محسودٌ عليه، وهو المتقلب الذي أرهقه السهاد فوق أشواك القلق، فيلتحف الخوف كثعبان يعتصر سَكينتَه، ويضمر خنقه بملاءات الحرير.

ليس أشد على الرجل منا إلا أن يصبحَ غير ذي قيمة، بعد أن كان ملء السمع والبصر، ومحور الكون الذي كونه لنفسه، ووضع له قوانين جاذبيته وتنافره، ليصيرَ هو الشمس التي تدور في فلكها كل الكواكب، ولا تستطيع الإفلاتَ من مدارها إلا إذا اختل توازن الكون، أو انطفأت الشمس في خريف العمر، وها أنا الآن قد انطفأت، وخبت جذوتي، منذ أن ودعت صرخات ذلك المنبه الذي كان يوقظني لعملي في كل صباح، هذه الصرخاتُ هي التي كانت تضبطُ إيقاعي، وتجر من خلفها زفراتٍ وتأوهات تحتضنُ الألمَ فتهوي به إلى قاع الاستمتاع!

لم أعتد النوم كثيرا، ظل نومي متقطعا دوما، توقظني أقل الأصوات ضجيجا، ولو كان صوتَ فرارِ قطرةِ ماء من صنبور معطوبٍ في الحمام، لكني ظللت من أعداء الاستيقاظ المبكر على كل حال، صرخاتُ المنبه تتقمص معي دور مطرقة تدق ولا ترحم، فلا تجد إلا رأسي لتهشمها في الصباح، فتتبخر معها قطراتُ الندى الرطبة مختلطةً بحبات العرق الراقدة منتشيةً فوق الجبين، ويبقى بينهما ذلك البرزخ الذي لا تبغي فيه نشوة التلذذ بمتعة النوم على القدرة على احتمال آلام السمع والطاعة، فلا مفرَّ إذًا إلا أن ننساق خلف دقات الاستيقاظ كي لا تجلدنا أسواط العصيان.

لكن هذه الصرخات قد صمتت إلى الأبد، صمتت الحاجة إليها رغم بقائها تصرخ كل صباح، لم يعدْ صراخُ المنبه اللعين عندي إلا صوتا يتماهى خلف جدران الماضي، وتطمسه أستار النسيان، أضبطه في كل صباح بحكم العادة، ليس ليوقظني لكن لكي أشعرَ معه فقط بأنني موجود، حتى أشعرَ أن هناك شيئا ما؛ ما زال يناديني سواها هي عندما تنادي ذلك الثور الذي سيتعلقَ

في الساقية ليروي أرضها البور المتشققة الهَرمةَ، وعليه أن يحتمل لسعات الكرابيج فوق ظهره.

لم أعد أنام ملء جفوني لتوقظني شوارد تلك الصرخات، وبات يهدني ذلك الحرث الممتع فيها عندما تتشبث بي مع الحياة لتنتزع اللذةَ، فأصعد مع الموج الهادر إلى قمة لا أبلغ مداها، ثم تحطني الموجات ممتصةً كل طاقتي، ليصبح الاستيقاظ مبكرا همًّا أحمله.

– لم تعد تفعل ما هو مطلوب منك، أين ذهبت طاقتك وعنفوانك؟

تنسى النساء كل شيء ولا يتذكرن أبدا إلا ما يردنه من الرجال فحسب، ما زالت ترن في أذني كلمات تلك الجنية في ألف ليلة وليلة للفتى عزيز.

– الخبز مخبوز والماء في الكوز، وما أريد منك إلا أن تعمل معي كما يعمل الديك، أن تأكل وتشرب وتنكح.[1]

لكن يبدو أنه قد سقط الديك، يا لهذا المنبه اللعين، ظللت أعمل معه لسنوات، وأحتمل صرخاته القاسية إذا أشرق عليَّ الصباح، كما كنت احتمل معها تلك الصرخاتِ الشبقةَ إذا جنَّ الليل، في المتعة ألم يستلذ به كل باحث، وينوء بحمله كل تائه في الطريق، ولو كان الذهاب إلى العمل في الصباح المبكر جدًّا حملا ثقيلا ينوء به كل كاهل، إنما ظل عنقي المستقر من فوق كاهلي هو الذي يدفع الثمن، كي يظل مرفوعا ويتباهى حتى بالتعب، حتى فقدت كل شيء: صرخات المنبه وصرخاتها، فطأطأت عنقي لأختبئ تحت الغطاء، صرت كحامل جوال من الملح، يمشي محنيَّ الظهر يحجل، ولا يهب بملحه الأجاج هذا للظمآن إلا ظماء!

أدركت في لحظة واحدة، أن العمرَ الذي جهز حقائبَ سفرِه وانتظر قطار

(1) من قصة تاج الملوك في ألف ليلة وليلة.

الرحيل قد لا يمكنه أن يعود ويفتحها مرةً أخرى، ليرتدي ملابسه المزركشة المفعمة بألوان الأمل، فلا لون اليوم إلا لون ذلك الرماد الذي تعلق بالخطوات التي أرهقها التيه في السبل الظليلة، فلا بأس اليوم من التمني واستجداء الذكريات، عساها تبقى مكانها، وعساها تذكر الذين سنتركهم بعدنا أنه كان هنا من لم يبرحوا هذا المكان؛ حتى ملأوا الدنيا وشغلوا الناس.

للرجل منا طاقة قصوى تعينه على الاحتمال، إلا أن يكون مهملا يستجدي الاهتمام، لماذا يعطينا العمل القدرة على الاستمرار في المحاولة رغم الشكوى، حتى إذا ما استغنوا عنا انهارت قوانا واستغنت عنا الحياة، الفراغ يقتل أحيانا وإن غبطه أولئك الذين يرتعون في نعمة الانشغال، صرت وأنا في الفراش كبالون فارغ يلهث خلف امرأة تسابق الشبق كمقذوف لا يلوي عن بلوغ الهدف، تخاف هي الأخرى من نضوب المعين واستغناء الارتواء!

لم يعد الأولاد يعتبرونني موجودا، كل شيء يريدونه صاروا يطلبونه من أمهم، صار كلامي ثقيلا عليهم ثقل الأعاصير في الشتاء، فتجمدت كل الأنهار التي كانت تجري بيني وبينهم، وقت أن كنت مشغولًا كانوا يطالبونني بالتفرغ لهم، ووقت أن تفرغت لهم انشغلوا هم عني، ربما أدركوا كذلك أنه لم يعد لي أهمية في هذه الحياة، صرت أعمل عمل الديك فحسب، أغالب وأكابر ثم أهوي مقطوع الأنفاس مذبوح الفؤاد، ربما يتم ذبحي إذا لم أعمل عملي بإتقان!

لم يعد المنبه اللعين يصرخ، لم أعد ضبطه مرةً أخرى لأخرج من الفراش، لم تعد لي حاجة إلى صرخاته المزعجة، فلم أنم مرةً أخرى، بحثت كثيرا عن عملٍ آخرَ منذ أن تعطلت، لكن دون جدوى، عبارات الاستهجان تلاحقني في كل مكان، هل ما زلت تبحث عن عمل بعد أن بلغت من العمر ما أوشك أن يحني ظهرك؟ ألم تستبق للغد شيئا يغنيك عن ذل السؤال؟ إنهم لا يدركون أنني أبحث عن نفسي لا عن المال، عن تلك الذات الممتهنة في الفراغ، عن ذلك الانشغال الذي هو نعمة لا يقدرها إلا كل من لم يعد يهتم به أحد.

هل صار حتما عليَّ أن أنتظر نهايتي وأنا مكوم هنا هكذا؟ أنتفض كديك صار يؤذن في غير أوانه، ويراه الناس سعيدا بفراغِه المقيت رغم ارتخاء أحبال حنجرته، فإذا ما انتهى كل شيء نقلوني من هنا إلى هناك، ودون أدنى صراخ للفراق!

لكن لا... ربما كان هناك اختيار آخر... لا بد أن يكون كذلك، ما الذي أفقدك القدرة على الفعل منذ زمن، كنت قديمًا تحكم الظروف وتغير الواقع، حمق القرارات يحكمه التأخر في اتخاذها، ولا بد أن هذا هو الوقت المناسب، والجسارة قد تحتاج لشيء من المغامرة، لم يعد هناك ما تخسره أيها الديك التعس، إما العمل وإما الموت، فلم التردد؟! سأقبل أي عمل يأتيني مهما كانت حقارته، موت البطء لا يختلف عن موت السرعة، كلاهما موتٌ على كل حال، بل إن الموتَ بالبطء يحمل معاناة أكبر!

انتفضت من الفراش هذه المرة دون صراخ المنبه، أنتشي بلذة مرتاحٍ يحن إلى التعب، أشواك القلق لم تعد تؤرقني في مرقدي، كنت أغط في نوم عميقٍ منذ ارتميت بجوارها وهي ممتنة، لذةُ مواصلةِ النوم تقتلها متعة الاستيقاظ فتبلغ حد الارتواء بالانشغال، لم يعد يلحقني أحد منهم في الصباح، عدت لأسبقهم جميعا، أصحو وأخرج أولهم، ثم أعود للبيت وأغفو آخرهم!

نزل الخبر عليهم كما الصاعقة، صار الديك يعمل أعمالا أخرى ويشعر بوجوده، لم يعد يأكل ويشرب وينكح ثم تنتهي الحاجة إليه، ولو عملَ حمالا يحمل الأثقال على ظهره في البقالة أسفل العمارة، سيجلب لنا العار في خاتمةِ عمره، هكذا يقولون ويصرخون، العار عندي ليس كما يعتقدون، ثقلُ عبارات التقريع أهون من ثقل ساعات التجاهل، لم تعد هناك لاءات ثلاث، عادت السفينةُ تمخر في البحر مرات ومرات، ولا تكابر أو تستسلم لقسوة الصخور، ولم يعدْ هناك ديك يهوى ما تبقى من ليلته، بل يستقبل الصباحَ وينتفض ويصيح في الوقت المناسب، كل شيء عاد للصراخ إلى حد الشبق، حتى اكتملت الصرخات.

هوى الديك للمرة الأخيرة والكل يصرخ.

إلا أن الكل يؤكد بأنه قد مات سعيدا!

شاشة زرقاء

الليل يجثم بأستاره على البيوت، أسكن في تلك الحارة الضيقة، بيتُنا يقع في آخرها، يغلقها تماما في النهاية، مكانٌ لا يصلح أبدا للفرار، إن أردت أن تقع في براثنِهم عليك فقط بالدخول إلى هنا، وستتكفلُ ألف عين بالبحث عنك، وألف يد أخرى ستناضل من أجل الإمساك بك، ثم تتبارى من بعدها الألسن متسائلةً في دهشة.

– هوا في إيه؟!

لتشيعني من بعدها مئات القصص المروية، روايات لن أشارك في تأليفها بالقطع، كما يشاركُ هو في تأليف معظم القصص المروية عنه، ويشعرُ بالفخر وهو يجلس كل يومٍ على عتبة داره ليسمعها تتواتر من خلف أكتافه، لا يلتفت أبدا لمن يتقولون عليه، يبدو أكثرَ سعادةً كلما ازدادت عنه تلك الروايات، أكاد أمحه كل يوم وهو يتابعني من هناك وأنا قادم من بعيد، لم تتغيرْ جلستُه هذه منذ سنوات طويلة، لست أدري ما الذي قوى قلبه وجرأه على الاستمرار في السكنى في هذا الزقاق الضيق، ليصير مهدَّدًا فيه في كل وقت، إلا أنه لم يهرب أبدا في أي مرة، ولم يتلبسه ذلك الخوف والارتجاف الذي يحدث لي الآن!

كنت أنا و(ناجي) أصدقاء في الطفولة، لعبنا كثيرا على تلك العتبات

قبل أن تتطاول هكذا في البنيان، لم يعد ناجي من الحفاة كما عهدته قديما، يحترمني كثيرا ويحيرني كذلك بمقدار احترامه لي، كم هو مؤلم حقًّا أن يتحول صديق الطفولة إلى مجرد لغز، لم أعجز عن حله قطعا، إنما أفر من ذلك الحل لعدم إدراك النجاح، هل هو لص في هيئة تاجر؟ أم تاجر تحسده اللصوص؟ هل يقتاتُ من القفز على أسطح الغرباء؟ أم يتاجر بجلوسه الدائم على عتبات الجيران؟ كلانا ينظر إلى الآخر نظرةَ قليل الحيلة الذي لم يكفه ما في يديه، يظل الحق بعيدًا في هذه البلاد بعد الباطل عن عدالة القضاء؟!

لم نعد نسمع في الطرقات إلا نعيقَ الغربان، امتلأت الشوارع مؤخَّرًا بحاملي السكاكين، صارت موحشةً ونفر منها هرعين فزعين إلى البيوت، في كل يوم تغشانا سيارة شرطة كبيرة، تحمل في صندوقها الحديدي القاسي ما يكتظ منه ويتساقط، فتعود وتأخذه مرغمةً في اليوم التالي، كلمة واحدة قد تخرج منك على سبيل السخرية قد تودي بك إلى موارد الغياب، تتلعثمُ الألسن فرارا من ملاحقةِ الآذان، لم يبقَ أمامي إلا تلك الشاشة الزرقاء، أفر إليها كل يوم لأبوح لها بكل ما أعانيه، صار صدرُها أرحب من كل الصدور، فتغشاها صدري الذي قد ضاقَ بما يجيش به، وقد يبوح بما لا يقَال كما يقول عمر الخيام!

وصلني التهديد أخيرا، كثيرون قد حذروني من ذلك التظاهر الزائف بالشجاعة، احتضنني الخوف كثعبان راقد ينتظر الدفء ليملص في جانبي ويلدغني، يبدو أنني قد أدمنت ذلك النضال الباهت المستكين، ظننت يوما أنني سأغيرُ ذلكَ العالم، إنما من خلف هذه الشاشة الزرقاء أشكُّ قطعًا، في كل يوم أكتب وأهاجم هنا وهناك، أتمتع بجرأة يحسدني عليها كل المتابعين، أعلم أن كثيرا منهم مخبرون، لم أكتب عليها كذبا في أي يوم، رغمَ تكاثر المكذبين حول منشوراتي تكاثرَ الذئاب على فريسة بريئة، معلوماتي كلها صحيحة، فأنا أدقِّقُ فيها أيما تدقيق، أبدو في نظرهم أخطرَ من أولئك الخراف الذين ينساقون وراء كل شائعة لعشب، أو خلف كل سرابٍ يحسبونَه من ظمئهم

ماء، فتعلو أصوات ثغائهم فيطرب لها المخبرون، يكون الكذب أكثر فائدة لو أطلقته بنفسك لتلوكه ألسنةُ الخصوم فيستحيل صخورا تتكسر عليها أضراسهم بالمجان!

«تم نسخ كل ما كتبته، وتم إرساله إلى من يهمه الأمر لاتخاذ اللازم نحو مثيري الفتنة.»

هكذا قالها لي من يهتم بهذا الأمر أكثرَ من أولي الأمر، والتهمة هي نشر معلومات كاذبة بغرض الفتنة، هي كاذبة قطعا، التهمةُ طبعا لا المعلوماتُ، لكن الخصم قد سرق وشاح القاضي وامتطى صهوةَ النزال، وقد لا يعيدون الوشاح لربه قريبا، ربما لن يتعدى الأمر مجردَ تهديدٍ أجوفَ، وربما لا...

لكن من ذا الذي يؤكد لي صدق هذا التهديد من كذبه؟ اعتدت النضال، نعم، لكني لم أعتد تلك الإهانات التي أسمع عنها وراءَ القضبان، كنت أشاهد المظاهرات على شاشة التلفاز، اشتعلتُ ثورةً وانطفأتُ وأنا أهتف بحرقة مع المتظاهرين، لكن فقط إذا انقطعت الكهرباء، لم أعرف لنفسي دورا غير هذا، كل ميَّسرٌ لما خُلِقَ له كما يقولون.

مررتُ عليه وألقيت السلام، ناجي يرد السلام في معظم الأحيان، وجهه مبتسمٌ دائما، لا يحمل لتلك الدنيا أدنى اهتمام، ربما لا ترهقه من فوق أكتافِه رأس مثل تلك التي أنوء بحملها، تكتظ بعلوم وفنون ومبادئ، لو يَشرها صاحبها ولو بثمن بخس فلن يجدَ حتى الدراهمَ المعدودة، هذي بلاد تبيع العلم فقط لكنها لا تشتري المتعلمين، اختصر هو طريقه منذ البداية واكتفى بالقدرة على القراءة والحساب، ليبدأ من بعدها طريقا يعرفه الجميع، لكن أحدا لا يجرؤ على التصريح له بذلك، يتذرعُ الجميع فقط بالصبر على البلوى من سكناه وأهله تلك بيننا، ومع ذلك يهرعون إليه في الملمات، هو يجزل كثيرا في العطاء ولا يسألُ عن إعادة عطاياه هذهِ أبدا، أصبحَ الدائنَ الدائم للجميع فاستحقَّ لقب المحسن الوحيد.

رأيته مرات وهو مقبوضٌ عليه، لم يعد يجلس مكبا برأسه في سيارة الشرطة كما كنت ألحظه في كل مرة، صار في الفترة الأخيرة يرفع رأسَه وكأنه يتباهى بما قد حقق من إنجازات، لم يخلُ بيت في الزقاق من بقايا إحسان مائدتِه العامرة، صار معشوقَ النساء القادرَ على جلب كل جميل، يشيعنه بالدموع ويصببن جام غضبهن على تلك الحكومة الظالمة، ولا يهدأن إلا بعودته من احتجازه ولم تمسسْه عقوبة، فيرقصن على أنغام النصر والخير الذي عاد، فترتفعُ رأسه أكثر وأكثر!

تلك الطَرَقات على الأبواب تؤلمني، أكاد أسمعها من كل اتجاه، في كل لحظة تخترق أذني بلا استئذانٍ، أشعر أنهم قد اقتربوا مني كثيرا، صرت أرى بابي يهتزُّ بمجرد سماعي لأية طرقات على أي بابٍ آخرَ في الحارة، ثم تتبعها دقات قلبي الذي صار ينبض بلهفة لم أعهدْها، وكأن دقاته تريد أن تفر من وحش يترصدها، تكاد تحطم الدقات قفصي الصدري، وكأن القلبَ كان مسجونا وخائفا طوال عمري في ذلك القفص المغلق على جبنه، وقد حان الوقت لتكسير الضلوع ليخرج إلى الحرية، ولو كان الثمن هو قتلي.

«هل كان حتما عليك أن تقول الحقيقة؟!»

في كل يوم يزداد خوفي، يبتعد التهديد نعم؛ لكن صرخات سيارات الشرطة تتعالى، ربما يأتون إليَّ هذه المرة، لم أعد أثق في أي ركن في البيت كي أتوارى فيه، قد ينطقه الله فيرشد عني لينجوَ بنفسه، هل كلمة واحدة صحيحة تقلب موازينَ الحياة إلى هذا الحد، نبحر في بحرٍ من الأكاذيب منذ سنوات، أيصير الصادقون فقط هم الغرقى؟! في بلدةٍ تمتلئ بالعميان يكون الجنون هو مصير المبصر الوحيد، أم أنني اعتدت النضال هكذا سهلا بلا أشواك أو جراح.

ماذا سيقول عني أهل تلك الحارة؟ هؤلاء الذين كنت أظنُّ أنني أدافع عنهم، وأدافع عما يملكون في هذا البلد ويُسرَقُ منهم، أيتهمونني بالسرقة أنا

الآخر، أم يتهمونني بالكذب؟! أم أنهم لا يشعرون بوجودي أصلا؟! كم من الفريات تتخذ طريقها للتصديق فتدهسُ الحقيقة نفسها تحت سنابك خيولها، لم أمتلكْ مالا مثل ناجي لأحسنَ به إلى هؤلاء وأجتث به كذلك ألسنةَ كذبِهم، هل قول الحقيقة صعب علينا إلى ذلك الحد، فنفر منه فرار الذئب من كلاب الراعي؟!

رد ناجي عليَّ السلام بحرارة هذه المرة، يبدو مطمئنا ويجلس بمنتهى الأريحية، تقدم مني والابتسامة تسبق طلته كالعادة، ليس هذا هو الوقت المناسبَ لهذا الاقتراب، ربما يلمح ذلك القلقَ الواضح وهو يتطاير من عيني، ذكرني بالأيام الخوالي وملاعب الصبا، تذكرت أنه كان يدافعُ عني دوما، يستر عورة ضعفي أمام حماقة وشراسة باقي الصبيان في الحارة، ومع ذلك ظللت أتعالى عليه، كثيرا ما ضبطتهُ في حديقتنا وهو يسرق البرتقالَ، لم يعد هناك برتقالٌ، ولم تعد هناك حديقة، كل شيء صار بلون الأسمنت الكئيب.

لم يبق من حواره معي إلا طلب واحد، طلبه مني رغم أنه لم يعتد سؤال أحد أبدا، هو فقط يريد أن يتعلم؟! يريد أن يتعلم (الفيس بوك)، تلكَ الشاشة الزرقاء التي صار يجلس خلفها الجميع، يلتهمونها بعيونهم كما تلتهم هي أوقاتهم!

لم أنتبه إليه وإلى طلبه، تخشبت أذناي على صوت ظل يوقظني من النوم كثيرا، فأنتفض منه بعد أن امتلأت مسامعي بسطل بارد من الخوف، وأبدل غطاء الأمَنةِ بعورة اليأس من التواري، فكل الكون قد صار ينظرني ولو في بطن أمي دون غشاء، وصوت سرينة الشرطة القميء يتعالى ويخترق السكون، تقتربُ سيارتهم الزرقاء ذات الصندوق المغلَقِ منا كسكين غادرٍ، تحمله يد سفاح لا يرحم.

لم أدر بعد إن كانت قد أتت كي تقبضَ عليه، أم لتقبض عليَّ، كل ما أدركته هو تلك العيون التي أحاطت بنا من كل اتجاه، عيون انقسمت نظراتها

بين الشماتة فيَّ والأسى عليه، أغلبُهم سيرقص حتمًا عند عودة ناجي...

لم أجد بُدًّا من الإمساك بذراعه القوية، ثم تواريت خلف ظهره وهمست له...

«إن كنتَ تريد تعلم (الفيس بوك)، تلك الشاشة الزرقاء، فعليك أن تعلمني السرقة أولا.»

قلتها بعد أن قبضوا علينا سويًّا هذه المرة!

ألم

رد أخيرا على إلحاح اتصالي، صار لي أكثر من عشرة أيام وأنا ألاحقُه، ضعيفة هي الغايات إذا ما وُوجِهَت بتوحش أولئك الذين يمتلكون العصا السحريةَ لتحقيقها، لكن هل صار عليَّ أن أروض تلك الوحوشَ من أجل الحصول على لقمة عيش؟! يجب التعامل مع أنياب الوحوش، لكل عصر أدواته على كل حال، وها نحن قد وصلنا لمرحلة تَخطفُ الطعام الساقط من الأفواه المكشرة عن أنيابها الحادة.

«احمل أوراقَك، اذهب فورا إلى هذا العنوان، قابل هذا الشخص سيساعدك.»

قالها بلهجةٍ آمرة، تتغلف حتما بكثير من التعطف والتأسي، أبدو أمامه كطفل لا يعرف أين مصلحته، إذًا؛ لا مفر من الذهاب، الأطفال المؤدبون لا يجادلون بل يسمعون الكلام فحسب، مكثت طويلا متعطلا في البيت، إعلاناتُ الوظائف الخالية على الإنترنت رغم بريقها الأخاذ أُجاجٌ لا يروي العطش، تجعلك تنتظر وتنتظر كأمواج تتابع لتعبئ الشواطئ بالزبد، ثم تنحسرَ وتعود إلى البحر وقد نهشت الصخورَ والرمال، أغلبهم نصابون محترفون، يوهمونك دوما بالتوظيف ولا يقدمون لك إلا مطالباتهم بالمال، ضعف الطالب والمطلوب!

علمت يقينا أن الوظائف لا تأتي هكذا بمثل هذه السهولة، مجرد رسالة ترسلها من فوق مقعد وثير مع سيرة ذاتية مبهرة، أغلبها تُبَاع جاهزةً في المكتبات حاليا، تتسع الدنيا للأحلام لكن تضيق الغرف على من يحلق بجناحيهِ ليطلبها، ربما تتهشم رأسه بعد أن يصطدم في السقف أو الجدران، لم يعد هناك من يقرأ تلك الأوراق ولو صدق مرسلوها، يجب أن تبلى قدماك من الزحف على أعتاب المكاتب مع كثير من التوصيات والاستعطافات، حتى الملل من تكرار نفس الشيء مرات قد صار ترفًا، ولا يجب التمتع به.

الوقت يمر في بطء الحجر المحمول على الكاهل، تنوء بحمله وينحر فيك ويكاد يدميك، لم أتوقع أن دقائقَ الوصول إلى العاصمة ستتمدَّدُ بكل هذه الساعات الطوال، رغم أن المسافة لا تتعدى الساعة بالسيارة من مدينتي الصغيرة، لكنها تبتعد في كل يوم أكثر وأكثر، كل الوظائف موجودة هناك، لكن من الذي سيظفر بتلك المأدبة العامرة، لم تبق لنا هذه النمرة الشرسة شيئا من بقايا مائدتها للمدن الصغيرة، ثم تعود وتعاني من الزحام المتكتل على الأبواب!

صار لنا أكثر من ساعتين ولم نصل بعد لمشارف المدينة الكبيرة المرهقة بكثرة الزائرين، رغم براعةِ سائق الميكروباص التي تجاوزت كل مهارات لاعبي الأكروبات، إلا أنه كان يمرق بصعوبةٍ من أماكن الاختناق على الطريق السريع، عفوا... الذي كان سريعا يوما ما، يجب أن أصل مبكرا بقدر الإمكان، هذا الشخص لن ينتظرني كثيرا بالقطع، وإن لم يكن مشغولا كما سيدعي، يظنُّ البعض أن مقدارَ أهميتهم تزداد عادةً بادعاء الانشغال!

عنواني الذي أبتغيه يقع في أحد أرقى أحياء العاصمة، ربما هو أرقاها على الإطلاق، منطقةٌ نائية هادئة لا تصل إليها المواصلات العامة، يتحتم عليَّ أن أستأجر سيارةً أخرى ضمانا لسرعة الوصول، سائقو التاكسيات هنا يحاسبون الراكب بمقدار رقي المكان لا بزمن الوصول أو المسافة المقطوعة، لكن لا بأس، عليَّ الدفع مقدَّمًا على كل حال، كان يمكنني إرسال الأوراق

بالبريد الإلكتروني، لكن ما أسهل إلغاء تلك الرسائل بضغطة زر، أراحتهم التكنولوجيا الحديثة من عناء فرم الأوراق قديما، ربما يصيبهم بعض الخجل فينظروا فيها هنيهةً قبل أن يفرموها أمامنا!

أمتلك من الخبرة ما كان يغنيني عن كل ذلك، لكنها الدنيا التي تغيرت أحوالها، صرنا نعمل يوما ونتعطل عشرا، طالما لم ننجح في تعليق رقابنا تحت نير الحكومة الذي صار يتدلل، قراراتُ الاستغناء من أصحاب الأعمال لم تعدْ محلًّا للنقاش في هذه الأيام، توقعُ عليها قبل استلامك للعمل، قرار تعيينك مشمولٌ بقرار فصلك، مع كثير من الأسى وتطييب الخواطر، بل والتأكيد على مدى كفاءتك التي لا يحتاج لها العملُ حاليا، ولا تقطع الاتصال بنا مستقبلا فربما... ربما نرد عليك!

عاودتني الآلام في جانب بطني الأيمن مرةً أخرى، ليس هذا هو وقتك أيتها السمجة، سوء الحظ صار يرافقني كظلي، تناولت حبة دواء لتسكين ذلك الألم هذا الصباح، كنت أترقبه ولا أريده أن ينغص عليَّ مهمتي، لكنه الآن يزداد، ربما أحتاج لتلك الحقنةِ التي تسكنه تماما، لكني أستسلم بعدها لنوم عميق، ما العمل إذا في تلك الورطة، أنا على مشارف الوصول لمبنى الشركة التي سأقدم فيها أوراقي، يبدو فخمًا وكبيرا من بعيد، تغلفُه الشمس بأشعتها الذهبية التي انعكست من زجاجه الأزرق اللامع، هل يمكن أن أتراجعَ بعد أن وصلت إلى هنا؟ ربما تكون هذه هي الفرصة الوحيدة، عليَّ أن أخفي معاناتي من تلك الآلام، ليس هناك بد من تناول حبة مسكن أخرى، فهذه الشركات لا تقبل إلا الأصحاء.

تناولت حبةً كنت قد أحضرتها معي على سبيل الاحتياط، هو المرض ونذالته التي لا تُؤتَمن أبدا، دخلت إلى مبنى الشركة وأنا أستجدي أثر الحبةِ المسكن أن يسري في جسدي المرهَق، أشعر كأن سكينا تسرح لتقطع في بطني، كان الألم في هذه المرة هو الأشدَّ قسوةً على الإطلاق، لكن الأقسى منه كانت نظرات أفراد الأمن الذين استوقفوني على الأبواب ولاحقوني بالأسئلة،

إنما قد ثبتت براءتي والحمد لله وتأكدوا أنني لست من أولئك المتطفلين على المكان، من الباحثين عن عمل! فهناك من أعرفه بالداخل ليسمحوا لي بالتطفل.

دخلت من الباب مسرعا، فربما تراجعوا في قرارهم، حتى وصلت لمكتب المسؤول الكبير، أكاد أكز على أسناني لأكتم الألم الذي استباحني تماما وصار ينخر في داخلي، خفت أن تتهورَ حنجرتي وتطلق أي زفرة بآهة منفلتة، يبدو أن سفاحًا قد استقر في بطني وصار يبرطع فيها بسكينه الحادِّ بلا شفقة أو رحمة، ليس أقسى من الألم إلا أن تكتمه بنفسك كتمان النيران في الأتون.

لم تفلح السكرتيرة في كشف آلامي التي أخفيتها بمهارة لم تدم طويلا، فقد ردت عليَّ باقتضاب تغلفه ابتسامة بلاستيكية مصطنَعة، سيادته قد انصرف توا لأمر هام، ولن يعود قبل ساعتين، عليك أن تنتظره إن أردت، فأفلتت مني آهة مكتومة لاحظتها هي بعين متسائلة، فزعمت أنه إرهاق السفر، فأنا قادم من طريق طويل!

صار عليَّ الآن أن أنتظر، مع كل هذا الألم يجب أن أنتظر، هل هو مكتوب عليَّ الانتظار لأحتمل ألمين؟ ألم الانتظار وألم كتم الآلام؟ صرت أحوجَ للخلاص من الحياة حتى أتحرر من أسر ذلك الطوق الذي يحرص أن يخنقني، لكنه أحرص كذلك أن أظل على قيد الحياة لأظل في قيده، معلق أنا برقبتي في أحبال الأمل فوق هوة يأس سحيقة بلا خيار.

حاولت أن أشغل نفسي بالتقليب في بعض الجرائد والمجلات، لكن أتلوى لا إراديًّا من الألم، تلحظني السكرتيرة كل فترة، آلامي لا تخفت أبدا، بل تزيد، ذهبت لدورة المياه مرات، هنا ألم وهناك آلام، سألتني السكرتيرة: «هل أنت بخير؟» قلت لها: «بالقطع أنا بخير، إنه فقط إرهاق الانتظار بعد السفر!» مرت الساعتان كدهر طويل، أحسست فيهما أنني قد عدت لأيام آدم، تمنيت لو أني كنت هابيل وقد بسط قابيل يده إليَّ ليقتلني، هيا عجِّلْ بالقتل يا أخي،

أردت أن أستريح على أي وضع كان، يبدو أنني قد غبت عن الوعي برهة، عقارب الساعة قد قفزت فجأة إلى مستقرها، ربما كان هذا هو الجودي الذي كنت أنتظره، فسألت السكرتيرة.

– هل عاد؟

– لم يعد مع الأسف.

– متى يعود؟

– أبلغني حالا أن لن يعود اليوم.

– وأنا؟

– يمكنك أن تأتي غدا لمقابلته.

يمكنني أن آتي غدا، هذا أفضل على كل حال، فحملت أوراقي وآلامي، وأطلقت زفرةَ ألم أولى، زفرةً كنت قد كتمتها طويلا!

شَروَة

لم تتوقف السماء عن تعبئة شوارع المدينة بالأمطار، إلا منذ ساعةٍ تقريبا، صار لها أكثر من يومين لم تنفك فيهما عن إلقاء ذلك الخير للناس، هكذا يطلقون على المطر في هذا البلد الذي لم يعرفْ أبدا طريقَ الانتفاع بذلك الخير، إلا أن تتحمل أحذيةُ السائرين بأكوامٍ من الوحل وهم يجتازون بحيراته التي تغطي الشوارع، وعلى الكل أن يغوص فيه حتى يصلَ بصعوبة إلى مبتغاه.

كان حتما عليَّ أن أذهب إلى السوق، حتى اللقيمات الصغيرة الباقية من فتاتنا قد التهمناها لالتماس بعضِ الدفء في ذلك الطقس البارد، ثارت أمعاؤنا الخاوية ووقفت احتجاجًا واحتياجا لقطرات من أي حساء ساخن، عسى ألا تفرغ حال إعداده أسطوانة الغاز التي صرنا نعاني الأمرين في الحصول عليها، لم تبق إلا جنيهات قليلة والشهر لم يشرع بعد في حزم أمتعة الرحيل، ماذا عساني أفعل وأنا في نظر الكثيرين امرأة مستورة، امرأة اعتادت أن تتلقى من الجميع كلَّ تقدير واحترام، لكنها البطونُ التي لا يملؤها أعلى تقدير، ولا يسكتُ أنينها أسمى آيات الاحترام، حَراقة صارت هي الحياة في تلك الأيام، لم يبقَ فيها لملح الأرض من أمثالنا إلا الذوبان في ذلك الطين الذي انتشر في كل مكان.

لا مفر إذًا من الخوض في ذلك الطين، ولو تشقق منه حذائي الجلدي الفاخر القديم، ذلك الذي ما زلت أحتفظ به من بقايا الستر الغابر، تلك البقايا التي ظلت تخصفُ أجسادَنا التي تمزقت وتعرت حتى العظام، كنا أول

من سكن هنا، ضاحية نائية وهادئة رغم أنها تبتعد كثيرا عن المدينة، لكنها ترقد مثلَها بجوار البحر، وتنخفض بشوارعها دوما عن مستواه، فتظن بأن البحر سيغرقها بلا رحمة يوما ما، ومع ذلك تبدو الشوارع وقد انخفضت أكثرَ وأكثر في هذه الأيام، حتى لم نعد نرى أن لها آخرا في أعماق الزحام، وكأنها تريد أن تغوصَ وسط الأبراج العالية المنتصبة على الجانبين، كنا نرى البحر بسهولة أول ما سَكنا هنا، رخص الأراضي قديما جعل المنطقة تمتلئ بالفيلات، لكن الأبراجَ المتوحشة قد أكلتها مؤخرا، كما أكلت معها الشوارعَ الواسعة الخالية، خلاء ظل يغري أمواج البحر إذا زمجر في أقسى ليالي الشتاء.

صار البحرُ هو الذي يخاف الآن من الشوارع، بعد أن اكتظت وكادت تفيض عليه بالأفواه الجائعة، طوفان من البشر صار يزداد في كل يوم وأصبح يهدد حتى خلاء البحر البعيد، ليأكل كل أسماكه ويبيع جل أصدافه، ويزدرد حتى الملح الراقد فيه، فلا تعود أمواج البحر إليه إلا وهي خالية الوفاض، تماما كما أصبحت تعود سلات النساء البلاستيكية من السوق، كلها خالية إلا من خيبات الأمل التي عبأتها الأيادي القصيرة قليلة الحيلة.

أغلب النساء تخرجن هنا للتسوق في الصباح أو في منتصف النهار، كانت الأسواق تنفض مع أذان المغرب ولا تزيد، لم تكن هناك بضاعة تبور، لكنه الجوع الذي صار يستبيح البيوت العامرة، فأبطأ الفقراء الشراء تحسبا للشرْوةِ منخفضةِ السعر خشيةَ الفساد، سأكون هناك أنا وأولئك النساء المعدودات على الأصابع، أسماؤهن ظلت ترن في أذني كثيرا: سعاد، عفاف، رجاء... أي اسم لا يهم. هن نساء (الشروات).. هكذا يسميهن باعة السوق، بعد أن استمرأوا النداءَ عليهن بلا حياء، يا لها من فضيحة يغلفها الفقر والفاقة، كنت أشيعهن قديما بقليل من الأسى وكثير من الامتعاض، هل ثمن زوال الستر فادحٌ إلى حد التشهير في الأسواق؟ كم هو قاس ذلك المجتمع الذي صار يمصمص في العظام بعد أن أفنى الشحومَ واللحوم بين أنياب الآكلين على كل الموائد!

تعبأ حذائي كثيرا بأوحال الطريق، ضاقت الأرصفة بأكوام القمامة

والبضائع المتراصة رغم وابل المطر، فألقت بأقدام الزبائن الذين لا يشترون إلى الطين المتكوم فوق الأسفلت، انشغل الباعة بإعادة رص المعروضات، الرصيف الوحيد الذي ظل خاليا هو رصيف قصر (الباشا)... هكذا يطلقون عليه... منذ أن صار عضوا في المجلس الموقَّرِ بديمومةٍ لم تزحزحها أعاصير ثورة أو مشاهدة رئيس تم خلعه، تقف من ورائه قبيلة كبيرة من أصحاب المصالح، هو دائمٌ أبدا ولا يتغير، يلقب نفسَه بصوت الجماهير، رغم أن أحدا لم يسمعه أبدا يتحدث باسمهم، ويحرص دوما أن يظلَّ بعيدا عنهم!

يحتل قصرُه العالي ناصيتين كبيرتين من الشارع الرئيسي، يبدو القصر وكأنه فوق ربوة بارزة تجثم فوق الطريق، يحتاج الصعود إليه لجهد ملحوظ، لا تستطيع أن ترى شيئا بداخله إلا لو تسلقت السور العالي، إنما لو أفلت من كاميرات المراقبة لن تفلت من كلاب الحراسة الجائعة، مياه الأمطار لا تتجمع أبدا حول سور ذلك القصر، رغم أنها تغرق كل الحفر المنتشرة في أسفلت الشارع، تنساب المياه بنعومة من فوق بلاط (الإنترلوك) المثبت بإحكام حول السور، لتستقر هادئة في بالوعات دائما ما تلمع، مع كم هائل من أضواء المصابيح الزئبقية المتوهجة الموضوعة على أعمدة من الزهر المصبوب، لم تترك البلدية للباشا مجالًا حتى يعترض على نقص الخدمات!

ومع ذلك؛ لم تفلح محاولات الباشا المستميتة لرفع السوق الكبير من أمام قصره، مخلفات السوق وعفن البضائع المتراكمة تواجه بوابة القصر الرئيسية على الضفة الأخرى من الطريق، لكل سلطةٍ مهما تعاظمت حدودُها التي لن تتخطاها أبدا، ولو توحشت مخالبها أمام أنياب أصحاب المصالح الأخرى، حرصت على مسح حذائي في بلاط رصيف القصر الوردي الغالي، كذلك كان يفعل الآخرون، الكل هنا يمسح أقذاره في بلاط الباشا، لكن عندما تترك لهم كلاب الحراسة فرصةً سانحة لذلك، تغفل الكلاب أحيانا إذا ما انشغلت بتمزيق قطعة لحم تُلقَى إليهم من بقايا مائدة الباشا العامرة، فليحتمل إطعام الكلاب وأوحال أحذيتنا معا.

أوشك بعض باعة السوق أن يرحلوا، نفدت بضاعتهم الجيدة رغم غلاء الثمن، ارتفع صوت أذان المغرب منذ قليل في الزاوية التي بنيت وسط السوق، يتشح الباعة دوما بالإيمان كما يتشدقون بالأَيمَان، يؤكدون على خسارتهم دوما لكل زبون، لا يجد إمام الزاوية خلفه بعد التسليم في الصلاة إلا أولئك الذين لا يلقون بأيمانهم هكذا، فتقع منهم ولا تجد إلا الطينَ الذي يملأ أرض السوق ويلوث أجولة البضائع، لكن لا يهم، كل شيء هنا يبَاع حتى الطين، كل شيء وله ثمن إلا أولئك الذين يدفعون!

جنيهاتي القليلة لا تكفي لشراء أي شيء جيد، ولو باعوه بالخسارة كما يدعون، ماذا أفعل؟ هل أعود لبيتي بسلتي البلاستيكية ممتلئةً بالعوز والتمني؟! كذب من قال أن الأمعاء تأكل بعضها، الأمعاء تأكلنا نحن إن لم نملأها كل يوم، هي وحش كاسر يسكن في داخلنا ولا يصبر على جوعه يوما.

– تعالي يا مدام، الشروة بخمسة، كلها بخمسة.

ها هي الشَروَة لاحت من بعيد، خمسة فقط؟! ما هذا؟! تعلقت خمساته المزعومة في أذني من كل اتجاه، لتشدني منها لأنظر لبضاعته مجبورةً لا مختارة، كيف عرف ذلك البائع أنني أشاور عقلي للشراء؟! يبدو أن عينيَّ المبتدئتين في البحث تفضحانني مع أول محاولة، كثيرا ما كنت أدخل إلى هنا وتتعلق عيناي بالأشياء دون أن أشتري، هؤلاء الباعة يقرأون الأفكار بالتأكيد، لست من نساء الشروات حتى الآن، هل أفعل مثلهن؟ التردد يكاد يقتلني، ترى هل سيناديني بعد ذلك بـ(مدام)؟ أم باسمي هكذا كما اعتاد مع الأخريات؟

تقدمت قليلا، لا بأس من شجاعة أحارب بها ذلك التردَدَ القاتل، البطون الجائعة لا تعرف الكرامة، ظللت لسنوات عدة لا أذهب لهذا السوق في المساء أو حتى الصباح أبدا، كان هناك من يحمل إليَّ لحومه وأسماكه وخضرواته وفاكهته، قروش قليلة كنت أدفعها لحاملها كبقشيش وأنا راضية، ذهبت أيام عزنا ودارت علينا الدنيا فطحنتنا بين حجري رَحاها، صار علينا الشراء

الآن بأنفسنا حتى نضمنَ بقاء تلك الجنيهات المتبقية (المتمَرمَغَة) في تراب الفصال والترجي، لم يعد هذا زمن البقشيش على كل حال، اهترأت الجنيهات من عرق الأيادي المتشبثة بها، عليَّ أن أشتري تلك البقايا التي انتهكت من كثرة التقليب والإلقاء، لأسقط معها إلى قفص في الدرك الأسفل مع الذابل والمتعفن، فإما أن تُلقَى إلينا ببخس ثمنها، أو أن تُلقَى علينا بعفنها في أقرب خرابة!

لا بأس إذًا، فلتلقها إليَّ أيها البائع الماكر، شرْوة ثمينة من الطماطم تربو على خمسة كيلو جرامات، أرهقها التقليب والتفعيص، أخذتها عنوة من يد (سعاد) هكذا ناداها البائع باسمها، امرأة منهن كانت تترصد للشراء، كادت تحرقني بنظرات حقدها النارية، صممت أن تدفع أربع جنيهات فقط، يا له من ثمن غالٍ في بضاعة متعفنة، إنما أنا التي ظفرت بالمزاد في النهاية، غشيم يبدأ أولى صفقاته في السوق بلسعة على قفاه، هكذا روت لي عينا سعاد بنظرات شماتتها الواضحة لغلاء الثمن، حتى العفن قد وجد له من يزايد عليه، لكن يزايد أو لا يزايد هي كمية مناسبة ستكفينا لبضعة أيام، قد أعصر بعضها لأصنع منها بعض الصلصة، شيء ألون به حياتنا القاتمة التي خلت مؤخرا من كل الألوان.

– تعالي يا مدام، شروة بعشرة، كلها بعشرة.

بعض من أجنحة الدجاج المهترئة، شَروة دسمة بالفعل، تكفي لعمل وجبتين مع شوربة الفراخ، أشم فيها رائحةً غير مقبولة، لكن لا بأس، قد أخفيها ببعض الماء المملح والخل، ثم ننعم ببعض من لحم الدجاج الأبيض، ونمصمص في العظام بعد طول انتظار، جمعت أشلاء جنيهاتها العشرة بصعوبة من كيسي، أصبح فارغا تماما حتى من ثمن نصف ليمونة، لم تبق معي إلا رائحة الأجنحة النفاذة، انتزعتها هذه المرة انتزاعا من بين براثن (عفاف)، امرأة أخرى ناداها البائع باسمها، كادت تضربني أمام البائع وهي تصر على خطف هذه الشروة من بين يدي، ظل البائع يضحك علينا حتى تبينت لي أطلال

ضروسه الباقية في حلقِه، صرت عدوةً لكل نساء الشروَات المشهورات في السوق على ما يبدو!

الأكياس البلاستيكية التي ابتعت فيها شَروَتي ممزقةٌ جدا، ضن الباعة عليَّ بأكياس جديدة، ليس لي الحق على ما يبدو إلا في تلك الأكياس المهترئة مثل بضاعتهم، عليَّ أن أحملها بمنتهى الحرص، حتى أصل بها إلى بر الأمان في مطبخي، تلك المرأة الأخيرة التي انتزعت منها أجنحة الدجاج ظلت تسير خلفي، في الأمر شيء مقلق لا شك! أسرعت الخطى وأنا أتلفت كاللصوص، الكيسان ثقيلان جدا، وينضحان بخيط أحمر ينز من خلفي مختلط من ماء الطماطم ودماء الأجنحة.

عبرت الطريق الرئيسي المزدحم أمام السوق بمنتهى الصعوبة، حتى وصلت لرصيف القصر الخالي، انفتحت بوابة القصر أمامي للمرة الأولى، لا بأس من نظرةٍ عابرة لن تضرَّ سكانه في أي شيء، المنظر في الداخل يخلب الألباب حقا، أوراق الأشجار تلمع في النور بكل ألوان الطيفِ، غسلتها قطرات المطر فتلألأت تحت ضوء المصابيح الزئبقية الصفراء، زرقة حوض السباحة الكبير انعكست على واجهة القصر فرسمت عليها تموجاتٍ رائعة، حتى رائحة زهور الياسمين التي ظلت محبوسةً في الداخل يبدو أنها قد وجدت لها مفرا أخيرا، فنجحت في الهروب من أسوار القصر لنشمها في الشارع.

لاحت سيارة من سيارات صاحب القصر وهي تتحرك من بعيد، يبدو أن أحدهم سيخرج الآن إلى الشارع، يعرف الجميع سياراتهم تلك، أغلبها سوداء عالية عن الأرض لا يظهر زجاجها ما تخفيه في داخلها، وتكاد تلتهم الطريق وهي تفر مسرعةً فرار الحمر المستنفرة من القسورة، كانت السيارة تهبط نحوي من الربوة العالية في سرعة الريح، ملت عن طريقها بسرعة لأتفادى صدمتها، فتمزقت أكياسي وتبعثر كلُّ ما كان فيها على الأرض!

أطلقت صرخةً لا إرادية، صرخةً سمعَتها تلك المرأة التي ظلت تتبعني

بعد أن انتزعت منها شرْوة الأجنحة، سمعتها من خلفي وهي تطلق ضحكات شماتتها المدوية، اختلطت ضحكاتها العالية بنباح الكلاب التي سمعت صرختي فهرولت نحوي وهي تلهثُ لهاث الجوع، يبدو أن صاحب القصر لم يطعمها اليوم كما ينبغي، فهرعت لأجمع شتات أكياسي الذي تناثر على الأرض الملوثة بالوحل، لم تمهلني الكلاب أي فرصة لأجمع منه شيئا، فقد اندفعت نحو الأجنحة المتناثرة والتقمتها جميعا بين أسنانِها الحادة، لم تترك لي الكلاب إلا بقايا الوحل والدماء التي علقت في حذائي القديم، فمسحته في بلاط القصر الوردي الغالي وأنا أنظر للكلاب وهي تعودُ مهرولةً إلى القصر قبل أن يُغلَق بابه!

عشر دقائق

لم تنجح كل محاولاتي في قطع حديثها الدائم في هاتفها المحمول، كانت ترقق في صوتها باصطناع واضح، تحاول أن تبدو كعصفورة تشدو بالحب لجمهورها المخدوع في الحمام، مكان مناسب فعلا لمطارحة الغرامِ عبر المحمول، ونحن نصطفُّ أمامَها في صفوف المنتظرين للنتائج، بينما ترسم هي على خديها ابتسامات رخاميةً مستفزة وقاسية، من نفس نوع قساوة لوح الرخام البارد الذي تستند عليه، وتتوارى خلفَه بنظرات عينيها المتلصصة هنا وهناك، ربما لتبحث عن صيد جديد!

لم يعد هناك بدٌّ من الانتظار، يبدو أن كثرة معاشرة الآلام تماما كالغرام تورث الاعتياد وتعلم البلادة، ألححت عليها في السؤال فألقت لي الأوراق مع نظرة بلاستيكية داكنة، لم تكن تشبه الأوراقَ التي أعطتني إياها فحسب؛ إنما حملت في طياتها تفاصيل كثيرةً، تفاصيل لم ينجح إلحاح تساؤلاتي في ملاحقة شتات بعثرتها، وإن لاحقتني رنات الهاتف الثابت التي لم تكف عن الدق في طبلة أذني وأنا أبحر في خضم حيرتي الخائفة من مجهول مترصد، تخفى لي خلف أستار الغيب بخنجر لا أدري متى سيغرسه في ظهري.

ظللت أقلب في الأوراق ولكن دون جدوى، لم أفهم شيئا من كل ذلك الزخم المتناثر من الحروف والكلمات بلغات مختلطة، أرقام متراصة فوق بعضها بمنتهى الإهمال، وحزم من الأوراق وصور الأشعة تنوء بحملها العصبة

أولو القوة، هي لغة خاصة اعتاد الأطباء أن يتخاطبوا بها فيما بينهم، يتحاشون أن يعرفوا المرضى بحقيقة أمراضهم، حتى يبدون بمظهر الرحماء ويدخرون قسوتهم دوما لساعة دفع الحساب!

شيء مؤلم حقًّا أن يتعلق مصيرك بذلك الكم المتراكم من فوضى الحروف المبعثرة، وأن تحملها بين يديك لتسير بها إلى مصيرك المحتوم.

«احملها إلى طبيبك هناك، في نهاية الممر.»

هكذا أشارت لي موظفة الاستقبال الثرثارة بيدها، استعملت كل لغات الإشارة في العالم، فلسانها المعسول مبَاح للكلام في محمولها فقط!

الجو حارٌّ جدًّا وخانق في هذه المستشفى رغم أننا لم نودع الشتاء بعد، يبدو أن كثرة المرضى ترفع حرارة الجدران كما يرفع المرض حرارة الأبدان، أجهزة التكييف تناضل باستماتة كي تصلَ بنسماتها المتعبة إلى نهاية الممر المؤدي إلى غرف الأطباء، سرت وأنا أتلمس خطَّ سير جزيئات الهواء الباردة، تتراقص أطيافها مع ضوء الشمس المتسلل من النوافذ، تبدو النسمات وقد أصابها الوهن هي الأخرى، أكثرها يسقط مغشيا عليه في منتصف الطريق، ترى هل أصابها هي الأخرى ما أصابها واستفحل في خلايا كبدها؟ ولم تعد تستطيع الفكاك من أسره، هل سأصل إلى نهاية طريقي هذا؟ أم صار عليَّ أن أستعد أنا الآخر للسقوط.

وصلت أخيرا إلى نهاية الممر، هي النهاية على كل حال، لا أدري إن كان الطبيب ينتظرني الآن أم أنه اعتاد ألا ينتظر أحدا، مرضى كثيرون يتركونه ويحملون أوراقهم ولا يعودون إليه مرةً أخرى، أكثرهم يلقي بأوراق التحاليل الجديدة التي يطلبها إلى سلة المهملات، أحيانا يكون الاشتباه في وجود الشيء أفضل كثيرا من التأكد من وجوده، طالما أن النهاية محسومة في كلتا الحالتين، فلا جدوى إذًا من فعل شيء ثمنه مدفوع مدفوع تحت أي ظرف، ولو كان

ذلك الدفع سيتم عن طريق الورثة!

لم يكن لديَّ حتى رفاهية ذلك الاختيار، كان عليَّ أن أعرف النتيجة أيا ما كانت، وليس هذا فحسب، إنما يجب عليَّ أن أحملها بنفسي إلى مقر عملي، ربما أتسلم قرار فصلي بعدها، مع شديد الأسف لذلك! فلقد خرجت من قائمة (لائق) التي تستقر في شؤون العاملين، وتصدرت قائمة (غير لائق) التي ترقد مدفونةً في الأرشيف، يكفيهم فقط دخولي دائرة الاشتباه لإعفائي، صرت مصدرا للعدوى وعدم اللياقة في مكان لا يبذل أقصى ما في وسعه إلا لإصلاح الآلات الصماء، أما البشر فمن السهل استبدالهم، ربما لأن الآلات لا تشتكي أبدا إلى أن تموت!

«أصبحتَ مرشَّحا للموت على كل حال، وتفصلني عن إعلان تلك النتيجة عشر دقائق لا أكثر.»

هكذا قالتها الممرضة التي حملت أوراقي إلى الطبيب.

«عشر دقائق فقط. فالطبيب مشغول بحالة أخرى!»

حالة أخرى ستعرف الحقيقة، ربما لتلقي بأوراقها مثلها مثل غيرها إلى سلة المهملات، أكباد أكلتها الأشعة والتحاليل والتقارير والمسكنات قبل أن تأكلها الفيروسات، وبطون تضخمت خلف جلودها التي شحبت وأوشكت أن تختفي خلف العظام، وعيون جحظت وكادت تترك مآقيها وهي تنتظر نتائج تحاليلها غير المؤكدة، ليس هناك شيء مؤكَّد في هذا العالم المشبع بغازات التخدير وروائح المطهرات، إلا أنك لن تستطيع فيه إلى العلاج سبيلا!

لكن لا بأس من المحاولة، فحلاوة الروح يجب أن تمر دوما على نيران الانتظار، مثلها مثل أي حلوى صنعها صانعها لتحلو معها الأيام، ثم تقطعها السكين وتطحنها الأسنان في النهاية، وها قد حانت النهاية ونادت علي الممرضة.

«ادخل إلى الطبيب لتعرف النتيجة.»

هل كان حتما أن تنادي عليَّ بمثل هذه السرعة؟ كنت أريد دقائق أكثر من الجهل بالشيء، الذي هو خير من العلم به على كل حال!

مجرد دقائق أخرى إضافية قد أحيا معها في جنة الشك، قبل أن أحمل تقريري بيدي مدعَّمًا بالأختام الزرقاء والحمراء إلى نار اليقين.

كلما تقدمت قدمي خطوةً واحدة إلى الأمام تعلقت فيها خطوات أخرى تشدني شدًّا إلى الخلف، نظرات الطبيب الجالس في آخر الغرفة لا تتابعني ولا يشعر أساسا بوجودي، على الرغم من أنه يضع نظارةً سميكة ليرى الجميع من خلف عدساتها، ملامحه لا تدل على أنه سوف يزف إلى خبرا سعيدا، قد لا يعلم أن كل الأخبار التي سيسوقها إليَّ سواء، إلا أن يؤكد لي أنني سأموت قريبا!

لم يقل أي شيء على كل حال، إنما أعطاني مظروفا مُغلَقا، ثم قال لي:

– حالتك تحتاج إلى مزيد من التدقيق، يجب أن تتناول جرعات من هذه الأدوية، ثم تعاود المرور هنا بعد شهرين، ستجري نفس هذه الفحوصات مرةً أخرى، ثم نحدد بعدها ما إذا كنت ستستجيب للعلاج أم...

– قلها يا طبيب ولا تخف، ستستجيب للعلاج أم ستموت!

– ربما تستمر على هذا العلاج لشهور عديدة، لكن لا تقلق، فلديك تأمين صحي شامل!

قلت له:

– وهل ستصبر الشركة عليَّ كل هذه الشهور العديدة؟!

تناول المظروف مني مرةً أخرى، وختم عليه بخاتم أحمر.

ثم قال لي:

– هذا تسلمه لإدارة شركتك مُغلَقا.

كان عليَّ أن أخرج من عند الطبيب بسرعة، فقد دخلت إلى الغرفة حالة أخرى، حالة ستحتل مكاني في دائرة القلق، غابت الشمس عن نوافذ الممر، خنقتها السحب الرمادية التي اصطبغت بلون أحمر قان، يبدو أن كبد السماء قد صار يعاني هو الآخر من الوهن! صار الهواء كله مشبَعًا بالغبار، وبدا الممر أقصر من ذي قبل، وهواء المكيف صار أبرد، لم يعد أمامي أي باب مفتوح، كل الأبواب صارت مغلقةً في الممر إلا بابا واحدا هو باب الخروج، وبجواره سلة المهملات، فألقيت فيها بالمظروف وخاتمه، وأسرعت لألحق عشر دقائق أخرى، بدلا من تلك التي ضاعت مني مع الطبيب!

طربوش جنابك!

لا أدري ما الذي انتابني هذا الصباح، فقد صحوت من الفجرية رغم أنني لم أسمع أي ديك يؤذن للبكور، فالديكة في الغربة تتأخر عادةً في هذا اليوم لما بعد الظهيرة، ربما لعدوى أصابتها من بني الإنسان الكسلان في يوم الأجازة، ولن تستطيعَ أن توقظه أصوات ديكة أو حتى منبه يتراقص حتى يموتَ مصطدما برأسه في الحائط.

ورغم أن اليوم هو يوم جمعة، والتأخير فيه خير من التبكير، لكن حكم العادة قد يغلب الكسل والبلادة، وصارت زقزقات العصافير أكثرَ إزعاجا لي من صوت الشخير، فهرعتُ لفتح الشباك لتلسعني نسمة هواء باردة مُشبَعة بالندى، فسقطت إحدى قطراته الباردة على رأسي المحلوق حديثا، ولم يبق فيه الحلاق التركي أية بقايا من شعر، فقد جزه لي جزًّا حتى لم يعد في مقصه حد يحلق به رؤوسا أخرى.

ومنذ أن رأيت ذلك الحلاق التركي الذي صار يتكلم بلغة أهل البلد، بل ويجيدها ربما أكثرَ من كثير من أهلها، وقد بدأت تطاردني خيالات (طربوشية) تركية غريبة، فقد تذكرت الطربوش التركيَّ الأحمر (أبو زر)، والذي ورثناه قديما عن الأتراك العثمانيين، والذي لم أدرك أنه كان أحمر اللون إلا بعد ظهور التلفزيونات الملونة (التكني كلور)، فقد كنت أظنُّه رماديًّا كالحا، منذ أن طبقه (فؤاد المهندس) لـ(عبد التواب النمساوي) إمبراطور عماد الدين في المسرحية

الشهيرة، حتى لبسه (سليم باشا البدري) وكان أحمرَ فاقعَ اللون في مسلسل (ليالي الحلمية).

«قرر الرئيس محمد حسني مبارك تنحيه عن منصب رئاسة الجمهورية، وكلف المجلس الأعلى للقوات المسلحة بإدارة شؤون البلاد، والله الموفِّق والمستَعان.»

لم يتركني هذا الطربوش منذ إعلان ذلك البيان، قطعوا معه الإرسال وأذاعوه في كل مكان، لم أكن أتابع تلك التظاهرات في الحقيقة، ظننتها ستنتهي إلى لا شيء كسابقاتها، وإن رفعوا الأحذية بعد فصل كل خطاب، لكن الطربوش صار يزاحمني في كل شيء، أصبحت لا أكاد أفتح التليفزيون وأبدأ في مشاهدة أي قناة حتى أراه في كل صورة، كل المذيعين والضيوف وربما من خلف الكاميرات قد لبسوا جميعا طرابيشَ، حتى برامج الأفلام والأغاني والطبخ والأزياء والموضة انقلبت لمكلمة سياسية، هي الموضة على كل حال!

صار كل طربوش صاحب زر منهم يظهر وهو يتكلم ويداعب من حوله من الطرابيش ذات الزرازير، وهم يسمعونه على مضض ويتمايلون من حوله زرًّا زرا، ثم تداعب تلك الزرازير زر طربوشه وهو يتظاهر بالسماع ويتمايل هو الآخر بامتعاض، كنت أرى طربوشًا منتفخا ويكاد يتمزق، لكن على الفاضي، وطربوشا آخر مضبوط الحجم ومنضبطا، لكنه صب وجاهز ولا يمكن لأحد أن يطبقه حتى ولو جلس عليه وكتمه كتما، وطرابيش أخرى قديمة وكالحة، وطرابيش جديدة لكنها لا تساوي عناء حياكتها أو صبها وكيها، وطرابيش جوخ من الأصلي، وطرابيش نايلون من (المحزق)، وطرابيش صيني مضروبة، وطرابيش من بره هالله ومن جوه يعلم بها ربنا، لكنهم جميعا يشتركون في كونهم كلهم مجرد طرابيش!

«قولوا نعم للتعديلات الدستورية، يجب أن تدور عجلة الإنتاج مرةً

أخرى، إنهم يريدون أن يحذفوا الشريعة من الدستور الجديد، سنصبح أمةً كافرة، صَوِّت بالموافقة يا أخي من أجل أن تدخل الجنة، وعلى الآخرين أن يحزموا حقائبهم ويهاجروا منها!»

حاولت كثيرا أن أتخلص من هذه الحالة الطربوشية التي سيطرت على عيني، فانتقلت بعدوى فجة لرؤوس الآخرين، لم يفلح معها فنجان شاي من النوع الفتلة، ولا حتى متبوعا بكوب آخر من النوع الثقيل الحبر، حتى اكتشفتُ أخيرا أنني لم أنظر بعد لنفسي في المرآة منذ أن فارقت صالون الحلاقة، بعد أن فُجِعت من منظري في مرآته وأنا حليق أقرع بدرجة زيرو، فأسرعت لمرآة الحمام التي ظلت مغطاةً ببخار الماء الساخن، فمسحت المسحة الأولى بيدي الباردة، فلطمتني المفاجأة الكبرى على قفاي، فقد رأيت رأسي أنا الآخر وهو يحمل طربوشا أحمرَ ذا زر بلون التفاح الأمريكاني، وكان معوَجًّا على جنب كما طربوش المطرب (صالح عبد الحي) وهو يغني (ليه يا بنفسج)، فأيقنت بأن الحالة قد تعدت الحد معي، وصرت على أعتاب مستشفى الخانكة!

«إنهم يريدون عودة فلول النظام السابق، الإسلاميون يكسرون عظام بعضهم، والليبراليون لا يجتمعون على مرشح واحد!»

مددت يدي لأخلع ذلك الطربوش اللعين، لكن دون جدوى، وكأنه لم يكن موجودا فعلا، رغم أنني كنت أراه رأي العين، يبدو أن القصة قد دخلت معي في مرحلة جنون فعلي، أو إلى كوميديا فجة مثل أفلام (إسماعيل ياسين)، ولم يبقَ لي إلا أن أدعك في الطربوش فيخرج لي العفريت وهو يربع يديه ويجلس القرفصاء، ليعلن لجنابي.

«شبيك لبيك، تطلب إيه!»

كل يطلب ما يريد الآن، لا أحد يستطيع أن يكممَ فم أحد، ذلك بالفعل

هو أذان تحقيق الأحلام، ما نحلم به منذ سنين أوشك أن يكون في يدينا، لن نتركه هكذا بمثل هذه السهولة!

«تغير الرهان الآن، الضرورات تبيح المحظورات، يجب أن نعصر الليمون!»

الإجابة هنا ليست صعبة، فما يجب عليَّ أن ألبسه الآن لن يكون أبدا من اختياري، هو اختيار الضرورة، واختيار الضرورة هو الإجبار بعينه، ويبدو أنني قد لبسته بالفعل، طربوش أحمر وله زر يتمايل كثيرا، ويبدو فوق رأسي ويراه الجميع حتى العفريت ظل يضحك ويضحك، وينتظر أن أدعك له في الطربوش مرةً أخرى ليظهر ويقول (شبيك لبيك، طربوشك وبين إيديك) تلبس إيه؟!

«إن هذا الشعب لم يجد من يحنو عليه، أو يرفق به!»

عموما يضحك العفريت أو لا يضحك، المهم أنني قد لبست الطربوش والسلام، والمصيبة أنني لا أستطيع خلعه مرةً أخرى، ولا أستطيع أن أطلب من أحد أن يخلعه لي، لأن المصيبة الأكبر أنني لن أعترف بأنني قد لبسته، فالكارثة أنه رغم أن الكل يلبسون طرابيش، لكن أحدا منهم لن يعترف أبدًا بلبسه للطربوش، وسيسخرون فقط من طربوشي أنا على اعتبار أنني أنا الوحيد الذي لبس طربوشا في البلد، ورغم أن البلد كلها تلبس طرابيش حاليًّا، لكن من هذا الطربوش الذي سيعترف بذلك؟!

يبدو أن موعدَ العودة للوطن من بلاد الغربة قد حان، فلبس طربوش مثل هذا في بلاد غريبة مؤلم حقًّا، فمن الصعب أن يراك الغرباء بعد أن كنت ترفع رأسك عاليا وتتباهى، ليعودوا ويروك وأنت تطأطئ رأسك مرةً أخرى لترتدي طربوش جنابك هذا الكبير!

باب الله

كان ماء الوضوء يتساقط من جبهته الباردة وهو يتمتم بالدعاء لعل الله يجعل له في صحبة كل قطرةٍ تسقط منها سيئةً تخفف عن كاهله، ذلك المثقَل بالذنوب، حتى أذن المؤذن لصلاة الفجر، فخرج من منزله بخطوات منتظمة تصاحبها التكبيرات، ويظل يرددها خلف المؤذن متأملا في زيادة الثواب.

كانت الشوارع خاويةً كالعادة، والشبورة المائية تغطي كل شيء، الجو بارد ولفحات الرياح تفت في العظام، فهناك نوة تجتاح تلك المدينة الساحلية الكبيرة، لكن كل هذا لم يكنْ ليمنع (مصيلحي) الساعي في إحدى المصالح الحكومية من الخروج، فلم يكن للشيطان أي سلطان عليه في تلك الساعة بالذات، فلم يفلح اللعين في منعه من الخروج لأكثر من ثلاثين عاما، حتى تحولت معه صلاة الفجر جماعة في المسجد إلى عادة، وكثيرا ما كان يدعو في صلاته.

«اللهم لا تقطع لنا عادة!»

طريق (مصيلحي) إلى المسجد هو نفسُه ذات الطريق إلى عمله، صدفة أكرمه الله بها كي ينال الثواب من الجانبين، هكذا ظل يعتقد وهو في طريقه للعمل الذي اعتاد الذهاب إليه بعد أن ينتهي من صلاة الفجر في المسجد العتيق، والمواجه تماما للمبنى الحكومي القديم المتهالك الذي يعمل فيه، فقد

كان حتمًا عليه أن يكون أولَ الحاضرين لمقر العمل، وقبل مجيء كل الموظفين، وأن يكون كذلك آخرَ المنصرفين منه، بعد انصرافهم جميعا.

وصل إلى المسجد فوجد بابه مواربا، لم يتعجب من ذلك الأمر، هذه عادة هي الأخرى ولم تنقطع أبدا، عادة ظل يفعلها (عبد الغني) خادم المسجد الذي يبدأ معها في تبادل القفشات مع مصيلحي، قفشات كان يسعد بها كل منهما، فهذا يوارب باب (بيت الله) في وجه القاصدين، وهذا يغلق باب (فرج الله) في وجه الطالبين!

لم يكن عبد الغني يرد على مصيلحي إلا بجملة واحدة في كل مرة، بعد أن يحثُّه على أن يتقي الله متبوعةً بلقب (يا شيخ مصيلحي)، ويؤكد له بأن باب الله مفتوح دائما حتى ولو كان باب بيته مواربا، فكل ما على قاصده أن يدفعه ولو بيد واحدة، ليفتَحَ له الباب على مصاريعه حتى ولو حاول منع فعله ودخوله ذلك شيطان مريد، أما مصيلحي فكان يؤكد كذلك بأنه هو من يسخره الله ليفتح باب فرجه أمام وجه طالبيه بعد أن أغلقته الحكومة، فليس على طالبه إلا التوجه إليه في (الكانتين)، ليجدَ ضالته المنشودةَ بمشيئة الله وبنَفَسِ مصيلحي معه، والذي يصر كذلك على أنه المسيطر والمتحكم في كل أمور المصلحة التي يعمل فيها منذ زمن طويل، رغم أنه ليس أكثرَ من مجرد ساع فيها!

ولا يعتبر مصيلحي أن لهؤلاء البهوات (البكوات) من الموظفين الجالسين خلف المكاتب أي دور، إلا أن يكونوا سببًا في تعطيل طلبات ومصالح الناس، وأنه لولاه هو لما أنجز أي مواطن يقصد المصلحة أي طلب له!

وما يكاد مصيلحي ينتهي من صلاة الفجر حتى يهم بالانصراف قبل الخمسة عشر مصليًّا الذين حضروا للصلاة في المسجد، والذين يتناقص عددهم يوما بعد يوم! وبعد أن يودع صديقه اللدود عبد الغني المترصد له دوما بالقافية والنكات، ثم يتوكل على الله ويشمر ذراعيه إلى المرفقين

وسرواله إلى الفخذين، فأمامه من العمل الكثير في المصلحة التي يتوجه إلى بابها مباشرةً ويفتحه بمفتاح كبير من سلسلة المفاتيح الكثيرة التي يحملها، ويتركه كذلك مواربا كما باب المسجد، وسط ضحكات عبد الغني الذي يتابعه وهو يغلق باب المسجد بعد انتهاء الصلاة.

يبدأ مصيلحي في ملء البراد الألمنيوم الكبير بالماء، لزوم الشاي وخلافه، ويتركه ليغلي على نار هادئة يكون خلالها قد انتهى من كنس جميع غرف الموظفين وتلميع الأرفف والمكاتب، ويقوم بترتيب الملفات والأوراق المتناثرة، ثم يرجع سريعا إلى مكانه الذي سيرابط فيه بقية اليوم في دورة مياه الجمهور، بعد أن استقطع منها جزءا كبيرا، وتحولت بقدرة قادر إلى (كانتين) عامر بالمشروبات الساخنة والباردة، وزودها بكراتين ممتلئة بأكياس البسكويت والكيك وغيرها، وعلى منضدة كبيرة جهز فيها درجين كبيرين ممتلئين بالدمغات والملفات والورق والأقلام الجاف، كان مصيلحي يبدأ في مباشرة أعمال يومه ويتلقى الطلبات من الزبائن!

وزبائن مصيلحي في الكانتين نوعان، نوع كان يأتيه مباشرةً وهذا يعرف ما يريده، ونوع آخر يحاول أن يجلبَه بنفسه من أمام المكاتب، وكثيرا ما كانت تنجح محاولاته تلك، فمصيلحي له قدرة غريبة على أن يرى خيبة الأمل في عيون كل خائب، فيلتقطه بعد أن يتخذ قرار اليأس ويهم بمغادرة المصلحة مباشرةً وقد غلقت في وجهه كل الأبواب ورفض طلبه، وتحطمت سفينة آمالِه على صخور مراوغة الموظفين الجالسين خلف المكاتب، والذين دوخوه السبع دوخات، فما بين هذا وذاك يتأرجح صاحب الطلب ويتوه في دروب لا يعلمها إلا خبير، وهنا يظهر له ذلك الخبير، فيظن أنه قد وجد ضالَّتَه المفقودة بين هؤلاء الضالين، عندما يصطحبه الخبير مصيلحي إلى الكانتين فلا يملك إلا أن يقول له الطالب آمين!

وهناك يستقبله مصيلحي كما نسمة عصاري رطبة مندية بعد ظهر صيفي قائظ، فتمر على جبهته المعروقة مرور الثلج المشبع بماء الورد، ويسحب له

كرسيًّا بجوار براد الشاي الذي يغلي كما يغلي صدر صاحب المصلحة من كثرة اللف والدوران، فيقدم له مصيلحي كوبا من الماء البارد ليبتلَّ به ريقُه الذي جفَّ، ويطمئنه بأن كل شيء له حل وأن كل إدارة في المصلحة ولها سكة، بعد أن يسأله عما كان يريده، ولمن من الموظفين قد توجهَ بالضبط، وكيف أنه كان يجب عليه أن يتوجهَ للأستاذ (عبد العاطي) بدلا من الأستاذ (عبد الراضي)، ثم يناوله كوب الشاي الذي لم يطلبهُ والحساب (يجَمَّع)، بعد أن يأخذ منه كل الأوراق ومعها ثمن الشاي الذي لن يشربه كل من عبد العاطي وعبد الراضي للموافقة على طلبه، ثم يغادر الكانتين وهو يقول له عبارته الأثيرة:

«باب الله مفتوح!»

حتى يعود له بعد دقائق قصار، يكون فيها قد طلب منه أن يقضيها في الاستغفار، ليدخل عليه والابتسامة تزين وجهه الذي تزينه علامة الصلاة، وقد حمل له كل الأوراق خالصةً ومزينة هي الأخرى بجميع الأختام المطلوبة، فقد نزل فرج الله وتمت المصلحة، ومن طرق الأبواب ما خاب!

لم يكن مصيلحي يقبل الحرام أبدًا، لا على نفسه ولا يحب كذلك أن يلقيه إلى معدة أولاده، هكذا كان يردد دائما بين جلسائه، أما ما يخص هؤلاء الموظفين فهو شأنُهم فقط، وكل نفس بما كسبت رهينة، ورغم أنهم في نظرِه مرتشون والحرام لن ينفعهم في دنيا أو آخرة، لكن كل هذا لا يعنيه في أي شيء، فهو مجردُ (واسطة خير) وبدونه لن تتم أي مصلحة، وبدونه كذلك لن تعمل هذه المصلحة، ويؤكد أن كل ما يتقاضاه من زبونه، هو ثمن كوب الشاي فقط، ثم القهوة وزجاجات المياه الغازية والعصائر والبسكويت، حسب الوقت الذي سيستغرقه تخليص الطلب، بجانب حساب الورق والقلم والملف الكرتون (أبو نحاسة)، والدمغة التي لم يكن ليجدها صاحب الطلب إلا في بوستة وسط البلد، ويحرص عندما يجمع الحساب للزبون في النهاية ألا يتقاضى منه ثمن جلوسه على الكرسي، فهذا هو واجب ضيافته، ثم يأخذ

الحساب وهو يتمتم بدعائه المتواتر:

«الحمد لله الذي أطعمنا الطيب الذي رُزِقْناه، وجنبنا الخبيث الذي حملناه!»

حتى يسمع المؤذن وهو ينادي لصلاة الظهر، فيهرع مع جميع الموظفين للصلاة، ويبدون أكثر حرصًا عليها من أي وقت آخر، فتمتلئ بهم المصلى المخصصة في المصلحة، لكن وحده مصيلحي هو الذي كان يصلي خارج المصلحة، فله مسجده الخاص المواجه للمصلحة، حتى ولو قابل هناك صديقه المشاكس عبد الغني، الذي لم يكن يسلم من لسانه أبدًا، والذي يبدو أحيانًا أطول من ذراعه، تلك الذراع التي تعجز عن فتح دلفتي باب المسجد، لكنه قد خيبَ ظنه هذه المرة، فقد وجد باب المسجد مفتوحًا للمصلين على مصراعيه!

كان المصلون أكثر عددا هذه المرة، ربما لأنها صلاة الظهر، لكن الغريب أن أغلبهم كانوا من موظفي المصلحة، فلحق مصيلحي له مكانا في الصف الأخير، ودخل في الصلاة حتى سلم ونظر عن يمينه وعن شماله فوجد حوله الأستاذ (عبد الراضي) والأستاذ (عبد العاطي)، فمد يده وهو يقول لهما: «تقبل الله يا أساتذة!»

فرد عليه كلاهما:

«منا ومنكم يا مصيلحي!»

ثم انصرف ليخرج من المسجد ليقابل (عبد الغني) الواقف على الباب، والذي قال له:

– الموظفين كتير النهار ده يا مصيلحي.

فرد عليه مصيلحي قائلا:

– الظاهر محدش عاد بيصلي في المصلحة!

الغرباء

«لو أني أعرف خاتمتي ما كنت بدأت...»

هكذا ظل صوت عبد الحليم حافظ يردد في كلمات هذه الأغنية حتى ضج منها أهل المنطقة، وضجوا كذلك من (نصر) الخفير، الذي يحرس إحدى العمارات التي تحت الإنشاء، فهو يعيد ويزيد في تلك الأغنية، وبلا ملل من جهاز (الكاسيت) الكبير المتهالك ذي السماعات الدائرية بنظام (أوتوريفرس)، والذي يفخر به نصر كثيرا، ويردِّد دومًا على كل من يتندر عليه وعلى قدم وضخامة ذلك الكاسيت وضخامة سماعاته بتلك العبارة المكررة، والتي ملها الناس منه كذلك..

«ده؛ كاسيت ياباني أصلي وبتاع بلده!»

أحضرَ نصر ذلك الكاسيت معه من السعودية، عندما كان يعملُ هناك لمدة خمس سنواتٍ متصلة، لم يستطع فيها أن يأخذ إجازةً واحدة توحد ربنا، حتى استغنوا هم عنه وعن خدماته، لكنه أبدا لم يستغن عن خدمات ذلك الكاسيت الذي ظل يرافقه ويذكره بأيام العز، والتي ابتلعها الماضي فيما ابتلع منذ أكثر من عشرين عاما، ولم يبق له من تلك الأيام ورائحتها المعطرةِ بدهن العود والعنبر إلا صوت ذلك الكاسيت بشريطهِ الأصلي الذي أخذه مع الكاسيت من البائع هدية، وبعد إلحاح فوق البيعة، ولم يشتر من بعدها أي

شريط سواء كان أصليا أو حتى تقليدا!

ورغم مرور كل هذه السنوات لكن الشريط الأصلي لم يتلف، مع أنه ظل يديره كل يوم ليسمع منه نفس الأغنية، حتى ظنه الناس قد اشترى الكاسيت والشريط بداخله ولم يتعلم حتى الآن كيف يغير الشريط منه بشريط آخر، ولكن كل هذا لم يكن يهم نصر، بل ويتعمد أن يطربَ ويهيم مع كلمات الأغنية في ملكوت الخيال، رغم أن كلماتها باللغة العربية الفصحى، التي لا يفهم نصر معظمها لأنه رجل أمي لا يعرف القراءة والكتابة، لكنه كان يردد ويفهم معنى هذه الكلمات جيدا!

ونصر الذي لم تترك له التجاعيد والمنحنيات أي نضارة في وجهه، ورسمت عليه بإزميل نحات متمرس شرس مع الصخور كل أفاعيل الزمن وقسوته، فحفرتْ عليه تلك البقايا منذ أن تولت عنه أيام النعيم بعد أن خسرت معركتَها الأخيرة، فترك نفسه ورفع راية الاستسلام بعد الهزيمة ليسقط أسيرًا للطفو فوق أمواج الحياة، لتحمله حيثما شاءت وكيفما أرادت، وهو قانع بنصيبه القليل من على هامش شواطئ النسيان.

وحتى لو كان أهلُ المنطقة التي يعمل فيها ويقيم فيها –كذلك– يضجون منه، فهم لا يرون فيه إلا مجردَ مصدر إزعاج لهم، بل إن بعضهم كان يعتبر الخلاص منه هو غاية الأماني لإنقاذ المنطقة من أمثاله حتى يعود الهدوء مرةً أخرى إلى المكان، والذي افتقدوه منذ أن بدأ أصحاب تلك الأرض الفضاء التي ظلت خربةً لسنوات في بناء تلك العمارة السكنية الجديدة، وأحضروا نصر ليكون حارسا للبناء فقط، فقد كلفه مقاول البناء بحراسة الطوب والزلط والرمل، لكن نصر قد وضع نفسه تحت تصرف كل أهل المنطقة، يطلبونه فيجدونه تحت الأمر والطلب، ليحمل أشياءهم وينظف محلاتهم ويغسل سياراتهم، فقد كان يكفي أي طالب له أن ينادي من بعيد ويقول:

– يا نصر!

فتنشق الأرض عن نصر، ليقف أمام مناديه وهو يقول له:

– أي خدمة يا باشا؟!

لم يكن نصر يريد أن يغضب أحدًا منه، هكذا قد تعلم في بلاد الغربة في السعودية، كان يفعل أي شيء كي يرضى عنه الناس، طالما أن ذلك سوف يجعله يكسب مالا حلالا في النهاية، كانت له في الحياة نظرة عصرتها التجارب، فمثله ممن لم يحصلوا على أي شهادة، إلا شهادة التجنيد بعد ثلاث سنوات من الخدمة بلا ثمن، لم يجدوا شيئًا كي يتحججون به ليرتقوا بأنفسهم، ولم يتعلموا كذلك أي حرفة يبحث الناس عنهم من أجلها، فيصبحُ كلُّ رصيدهم في هذه الحياة هو الكلام، والذي كان نصر يختار للناس أحلاه، ويتجنب حتى مع أقسى الناس أقساه.

مرت سنوات الغربة على نصر كما طيف سريع حتى اضطروه للعودة بلا أي تعويض، أو حتى كلمة شكر عن سنوات عمره الضائعة، فعاد ثانيةً لهذا المكان الذي كاد يموت فيه قديما، لم يكن مسقطا لرأسه ولا ملعبا من ملاعب صباه، لكنه كان يحبه ويتعلق به أكثر من أي مكان، فهو قطعةٌ غالية من أرض الوطن، سالت من أجل عودتها إليه مرةً أخرى كثير من الدماء، تذكر رفقاء السلاح وليالي الخوف والرجاء التي عاشها معهم تحت طلقات الرصاص ودوي القنابل.

لكن أين هؤلاء ومن بقي منهم إلى الآن؟! لا بد وأن معظمَهم قد ودع الحياةَ غير آسف عليها، كان قد حمل بعضهم بالفعل إلى مثواه الأخير كما حملَ آماله من بعد النصر مع شهادة الخدمة العسكرية ليضعها بين أحضان الدولار والريال، بعد أن رجعَ لقريته بعد الحرب فلم يجد أحلامه التي تركها لتسكن فيها، فقد بارت الأراضي وانفض عنها الناس، ورحل العرقُ الذي كانت تُروَى به الأرض السوداء ليملأ بحورا لا ترتوي من الرمال التي لا تشبع أبدا في الصحراء!

بدأ الجوع يبحث عن بطنه التي طالما باتت متخمةً ولا تخشى زوال النعمة، لكن الجوعَ أسرع وصولا للبطون من الشبع، ولا تبتلع البطون الطين دون العرق الساكن فيه، أما البيت الذي بناه بالأسمنت والحديد فقد ابتلع الأرض التي كانت تكفيه وتشبعه إلى الأبد، وصار عليه الآن أن يعمل كي يستطيع الحياة، فعمل حارسا للعمارات والمشاريع لكن بعيدا عن بلدته، ينبغي ألا يراه أحد بعد أن تنازل عن بهرج الغربة الزائفِ حتى ولو حمل معه الكاسيت والمروحة لكل مشروع كان يتسلمُ فيه الحراسة، ويحمل معه كذلك عيونَه التي تغمض عند اللزوم، وأذنيه اللتين تسمعان الإساءةَ وتسكت!

كانوا صبيةً صغارا، أو هكذا كان يراهم وهم يتجمعون ويثرثرون، ثم يتندرون عليه وهو يجلس يرقبهم من بعيد، فيضحك لهم وهو يدخن الجوزة، فيتصاعد الدخان في ظلام الليل ليغطي على أدخنة أخرى كانت تتصاعد من الصبية كذلك، لكن من خلف العمارة ولا يدري عنها أحد، أدخنة زرقاء تداري أفعالا أخرى مشينةً لم يكن نصر يعلم عنها شيئا، أو ربما كان يعلم ولا يهتم، فقد اعتاد على الحياة غريبا في بلاد غريبة، وقد تعلم جيدا كيف لا يتدخل فيما لا يعنيه حتى لا يلقى ما لا يرضيه!

ضج سكان المنطقة من نصر ومما يغض الطرف عنه في كل ليلة، فقد تعددت السرقات وحوادث الاعتداء على البنات، وصار حمل المطاوي وإشهار السيوفِ حدثا عاديا، كان بعض الأهالي يجدونَها في جيوب أبنائهم، بل إن أحدَ الصبية المجهولين قد وُجِد مقتولا في إحدى الخرابات، فصبَّ الجميع جام غضبهم على نصر وصاروا يسبونه وأمثالَه ليل نهار، فلولا أولئك الغرباء الذين استوطنوا المدينة بعد أن انشغلَ أهلها في التجارة والربح، لما عرف أبناؤنا تلك العادات القبيحة، وكان نصر كثيرا ما يقول لنفسه:

«لولا دماء زملائي وعرقي أنا ما اغتنى هؤلاء!»

لكنه لم يكن ليعلنَ ذلك أبدا، وأن عليه أن يقتنع ويوقن بأنها أرزاق وقد

قسمها الله، ولولا أنهم تركوا الكد والتعب وركنوا إلى الراحة والرزق السريع في التجارة، ما وجد هو وأمثالُه رزقا يطعمون به أولادهم، هكذا كان يقول كذلك في الغربة خارج الوطن، حتى عادَ ليجدَ نفسه غريبا كذلك في وطنه!

نادى عليه أحد الأشخاص في الصباح كالعادة، فهرع إليه نصر ليلبي الطلب، كان المنادي ضابطًا من سكان المنطقة، لم يكن يريد شيئا منه كما توقع، لكنه أنذرَهُ بمغادرة المنطقة كلها، ليس هو فقط لكن عليهِ أن يصطحب معه كذلك كل المجرمين والبلطجية الذين سكنوها على يديه، لم يستطع نصر أن يردَّ عليه، ولم يكن يعرف كذلك من هم هؤلاء البلطجية... كل ما كان يفكِّر فيه هو ماذا سيفعل بعد أن يغادر عمله هنا، هل يعودُ إلى البحث عن عمل مرةً أخرى؟ هل المعرفة هي الثمن الفادح لبقائه بعد أن أضحى التذلل لا يعصم من الرحيل؟! لكن كل ما كان يعرفه أن الحكومة هي التي يجب أن تعرف كل شيء!

غاب نصر تماما عن المكان، وتنفَّس الجميع الصُّعداءَ بغيابه، فحتما سوف تغيب الجريمة والبلطجة إلى غير رجعة، وفي خضم الفرحة برحيله والتأسف على فقدان خدماته، ظهرت جثةٌ جديدة، وجدوها ملقاةً في إحدى الخرابات، وذهب الضابط ليعاين المكان، كانت الجثة المقتولة لرجل في الستين من العمر، تبدو التجاعيد القاسية واضحةً على وجهه، دقق فيها الضابط كثيرا، فاكتشف أن المقتول هو نصر نفسه، فقُيِّدَ الحادث ضد مجهول، فهؤلاء البلطجية ليس لهم في عرف الحكومة ثمن!

عاد جسد (نصر) إلى قريته القديمة محمولا في صندوق، عاد غريبا كما اعتاد دومًا أن يكون، ليرقد هادئا مهزوما تحت التراب، وعاد الضابط لبيته ليرقد مجهَدًا، لم يلتفت لزوجته التي أخبرته بأنها قد وجدت مطواةً في ملابس ابنهما المراهق، قال لها بأن كل شيء سينتهي برحيل نصر وأمثاله من المجرمين الذين سكنوا تلك المنطقة الراقية الهادئة، فحولوها مرتعًا للجريمة في كل يوم، ثم دخل لينام هانئ البال مرتاح الضمير، حتى أيقظه في الصباح صوت كاسيت

صيني مقلد، كان الصوت يصرخ عاليا لأقصى حد، ويتحشرج بأغنية منتشرة في تلك الأيام تقول:

«أنا شارب سيجارة بني، علشان دماغي بتاكلني...»

كان الصوت ينطلق هذه المرة من غرفة نوم ابن حضرة الضابط، فتأفف الضابط لذلك الصباح المزعج، ولعن أولئك الغرباء الذين علموا أولادَهم الأبرياء الصغار تلك الأشياء القبيحة، وحمد الله أن الأمر قد توقفَ عند ذلك الحد، ثم عاود دفنَ رأسه تحت البطانية!

عندما يصمت كل شيء!

لم أنم بمثل ذلك العمق منذ فترة طويلة، جافاني النوم طويلا منذ أن طرحتني تلك الآلام على هذا الفراش، عساها تكون مجرد إغماءة ثم أفيق بعدها، أشتاق لبعض الراحة والسكون...

تعبأت أذنايَ من صخب الحياة حتى فاضت، حتى أحاديثهم تلك السرية التي ظلوا يختلسونها من حولي كنت أسمعها، يغلفونها دوما بنظراتهم الشامتة الجوفاء، لكني احترفتُ قراءة ما يتوارى خلف العيون، وما يسكنُ من حقائقَ في الضمائر، وليس أقسى على الإنسان في تلك الأثناء إلا أن يُزَاحَ عنه الغطاء، فباطن الإنسان كباطن الأرض ترابٌ هادئ بارد، لكن تكمن من تحته نيران تتأجج!

أصبحت أرى كل شيء حولي بصورة جديدة، نظراتي الحديدية صارت تخترق الجدران، تتملص من بين الأجساد المحيطة بي، أراهم يتفحصون جسدي الملقى أمامهم بلا حراك، يشيعوني بقليل من الحزن وكثير من الفرح، البعضُ يراني قد تخلصت نهائيًّا من ذلك الألم الذي ظل يتملكني كحجر متعلق في رقبتي، ويشدني بإصرار الواثق تحت أمواج متلاطمة، وكلما نهضت من تحت الأمواج لأنادي من أجل شربة ماء، لم يكن يسمعني أحد.

تكاد تصم أذناي من كثرة ما أسمع من كلمات الأسى، تلوكها الألسن

كالمعتاد، مع كثير من الدعوات بالرحمة وسرعة الخلاص، تزدردها الألسن فتطحنها الأسنان وتظهر ما بها من حشوات مختلطة ببوادر السعادة...

ها قد تخلصنا منه أخيرا، من بعد طول انتظار وتمن، لكنني باق هنا رغم تمنياتكم جميعا، وسأنهض رغما عن أنوفكم جميعا، ما الذي أتى بكُم أساسًا بعد أن طالت غيبتكم ومقاطعتكم لي، هل من أحد يحمل كل هؤلاء إلى خارج تلك الغرفة، فقد ضاقت واكتظت بأمانيهم الخبيثة؟!

ناديت بأعلى ما أستطيعُ من صوت، لكن لم يكن يردُّ عليَّ أحد، لم أسمع حتى صوتي الذي اختنق وبدا وكأنه لم يعد يأتمر بأمري، وإذا بالصمت المتأهب يخيم على المكان، لم أعد أسمع أي شيء حتى من ألسنة المحيطين بي، صاروا مثل حجارة صماء لا تنطق أو تشعر، وإن بدوا وكأنهم يصرخون، أو يدعون الصراخ، لا فرق.

لم يعد يبدو لي العدو عدوا، ولا الصديق صديقا، صار الجميع في عيني سواء، أصبحت أرى الجميع بعيني طائر يحلق من فوق كل الرؤوس، فضاؤه الشاسع صار يتمدد ليحتوي كل العيون، ويسبر أغوار كل ما تخفيه البواطن، لكنه لم يعد يهتم بشيء، شيء ما صار يحثني على التخلي عن كل ما أحمله من أثقال، أصابع الحرية تتسلل لتحرر جسدي الذي ظل مقيدا في أصفاد الحب والكراهية والمرض والحاجة، لم أعد أهتم إلا بالحرية والتحليق فوق كل الأشياء.

ظللت أحلم مرارا بتلك اللحظة من الحرية التي افتقدتها طوال حياتي، ثم أصحو من بعدها فزعا، وأندم على فقدانها، وأمسح على وجهي وعلى جبهتي المعروقة، ثم أنظر من حولي وأبحث ملهوفًا عن شربة ماء، مجرد شربة قد تزيد تشبثي أكثر بالحياة!

لكني في تلك المرة لم أنتفض، ولم أفزع، تبلدت كل مشاعري، وكأنها قد

سقطت معي في بئر سحيقة من الثلج، فتجمدت رغم أني كنت أريد أن أفيق، حتى عيناي قد تجمدتا في محجريهما، فلم أعد أستطيع التجول في العيون، ولا التقليب فيها لأبحث عن إجابة، فصرت أصرخ فيهم:

«أفيقوني! أفيقوني!»

إنما لم أعد أسمع حتى صوتي!

أيقنت أنني قد فقدت القدرةَ تماما على الكلام، كما فقدت القدرة على الحركة منذ شهور عديدة، كيف لا أستطيع أن أحرر جسدي هذا الملفوف في تلك اللفافات البيضاء؟! وكيف أراه هكذا وعيونه مسبَلةٌ ولا أستطيع فتحها أو حتى تحريك الجفون!

هل فقدت القدرة على الفعل ذاته؟!

وكيف أحلق هكذا وبمثل هذه الحرية حول هؤلاء الواقفين الباكين من حولي، لماذا يبكون؟! بكاؤهم مُصطَنَعٌ مثل حياتهم تماما، اقتربت منهم وملت عليهم، تحسستهم بيدي، هززتهم بأقصى ما أمتلك من قوة:

«أنا هنا! أنا معكم!»

لكن أحدا لم يعد يشعر بي، ولا بهزاتي تلك القوية، كنت أقوى من أي وقت مضى، لكني لم أعد أؤثر في أحد، تحسست وجهي ويدي فلم أجد إلا فراغا، فهرعت إلى جسدي المغطَّى، لقد انفصلت عنه تماما، صرت أرى جسدي مثلهم، فهززته بمنتهى القوة، لكن لم أجد فيه أي حراك!

لم أعد أفهمُ شيئا، انفجرت في بكاء شديد، تحولَ البكاء إلى صراخ...

«أنقذوني! أنقذوني!»

لكن لا أحد يجيب، فاندفعت نحو أشيائي الثمينة، أبحث عنها هنا وهناك، هنا ملابسي المعلقة في الأركان، وهنا أموالي تختفي في الأدراج، وهناك لوحاتي وتحفي التي جمعتها بأغلى الأسعار، وهنا كتبي وصوري وذكرياتي أراها ترقد مطوية وقد علاها الغبار.

نظراتُ الطامعين من حولي تطوق كل الأشياء، أكاد أقرأُ في عيونهم مفاوضات التقسيم بالعدل أو بالجور، حاولت أن أحمل من أشيائي أي شيء، ما خفَّ حملُه ودفعت أنا ثمنه الغالي، أنا الوحيد الذي يدرك قيمتَها الحقيقية، قد يشروهَا بثمن بخس، لكني لم أستطع، لم تطاوعني الأشياء، كل أشيائي اللعينة التي امتلكتها وظللت أحرسها كنمر شرس لم تعد تطاوعني، حتى جسدي لم يعد يطاوعني!

إنهم يحملونه الآن على الأكف، جسدي اللعين هذا أراه يطاوعهم ولا يقاوم أو يكف أيديهم عنه، وضعوه في صندوق ضيق، كثيرون قد تقهقروا حتى لا يحملوا ذلك الصندوق على الأكتاف، تعلقت بالصندوق لأوقفهم، لم يتوقفوا وتركوني متعلِّقًا وكأنني لا شيء، تعلقت بالأبواب بالأرض، بالجدران...

«لا! لا تذهبوا! لا تأخذوني من هنا!»

لم يكن يسمعني أحد، فقدتُ القدرة حتى على الوجود، حتى جسدي لم يعد يعرفني، وسار معهم وطاوعهم بلا إرادة إلى خارج بيتي، ترك البيت كما ترك كل شيء فيه، فلم أجد بُدًّا من أن أتبعه أنا الآخر، وأترك كل شيء ورائي!

وصلوا به إلى مكان موحش، يغلفه الصمت المتقطع بطنين الذباب ونعيق الغربان، وأدخلوه في غرفة منخفضة السقف، ضيقةٍ بلا نوافذَ، بباب واحد محكَمِ الإغلاق، تكاد جدرانها المائلة تسقط على سكانها المتكدسين فيها، ما

زلت أراهم في الخارج يتبادلون الأحضان والقبلات، دموعهم الزائفة جفت سريعا فتركوا الجسد وحيدا في الظلام وذهبوا.

وإذ بالغرفة الضيقة تمتلئ عن آخرها، كثيرون منهم لم أكن أعرفهم من قبل، إلا هذين القادمين من بعيد، كانا أمي وأبي، فصرختُ فيهما:

«منذ زمن لم تأتياني في المنام، وكأنني لم أعد ابنكما؟!»

«انتظرناك أنت لتأتينا، لكنك تأخرت!»

«ولماذا تنتظراني كل هذا الزمن، ألم تقلقا عليَّ؟!»

«لم يعد للزمن لدينا أي قيمة!»

«أتمنى أن يكون لقائي بكما هو الآخر كحلم كما هي العادة!»

«لا، إنه ليس حلما كما تظن!»

«لكنكما ميتان منذ زمن!»

«وأنت كذلك يا ولدي، قد أصبحت منذ الآن ميتا!»

قصص المجموعة

إهداء..... 5

نشوة..... 7

صندوق معدني..... 15

استدعاء..... 22

عيناها عسليتان..... 31

ساعة حساب..... 37

بلغني أيها الديك السعيد..... 44

شاشة زرقاء..... 50

ألم..... 56

شَروَة..... 61

عشر دقائق..... 68

طربوش جنابك!..... 73

باب الله..... 77

الغرباء..... 83

عندما يصمت كل شيء!..... 89

قصص المجموعة..... 95